رقم 13

أيمن موسى

الكاتب: أيمن موسى

التدقيق اللغوي: أحمد إبراهيم

الإخراج الفني: ضياء فريد

تصميم الغلاف: محمد علي

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٠٩٨٣

الترقيم الدولي: ٧-٢٣-٦٦٨٩-٩٧٧-٩٧٨

كاريزما للنشر والتوزيع

9 شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل : 01126026691 01061813345

01009823984

الإهداء

عندما بلغت الثالثة عشر من عمري كنت أقرأ للمتعة فقط.
كنت أقرأ أي شيء وكل شيء بأي زمان أو مكان.
يهمني المحتوى والمضمون ولا يعنيني الكاتب.
لا أدري حقًّا هل أجد بينكم من يقرأ فقط للقراءة دون النظر لكاتب صنعه الإعلام أو مجدته الميديا؟
لمثل هؤلاء –إن وجدوا– أهدي مجموعتي القصصية (رقم ١٣).

أيمن موسى

المشرحة

مَنْ مِنَّا يدرك كل الحقيقة وكنهها!

ربما تراودنا بعض الأفكار والمعطيات، فنظن أننا توصلنا إلى جوهر الحقيقة لنتوقف أمامها، ربما قليلًا أو كثيرًا، بحسب عمق تفكيرنا قبل أن نشيح عنها بعيدًا، حتى لا تجرفنا نحو الهاوية، وربما أو بالتأكيد نتعمد الهروب خوفًا منها أن تحاصرنا أو تستحوذ على عقولنا.

المرة الوحيدة التي أدركت فيها أنني أمام حقيقة مؤكدة وثابتة، كانت رائحة الموت تحيط بي من كل الزوايا، ومن كل حدب وصوب، ربما ينتابكم الفضول لمعرفة ما مر بي وما عايشته وما جعلني ما أصبحت عليه الآن، رغم أن ما حدث لي ظل حبيس عقلي وخيالي ولم يغادرني إلا أنني سأفصح عنه وسأخبركم.. نعم سأخبركم!

ذات ليلة شتوية من إحدى ليالي شهر فبراير شديد البرودة، وبأول مناوبة عمل ليلية لي كوني حارسًا أمنيًّا على المشرحة، ووسط مخاوفي الجمة، وتلك الهواجس التي تعبث بعقلي، بدأت قصتي والتي جعلتني أنظر إلى الحياة من منظور آخر ومغاير لما قبلها.

اسمي عماد، شاب يشبه الملايين من الشباب الذين ماتت أحلامهم قبل أن تُولد حتى أيقنوا أن الأحلام رفاهية وإثمًا يجب التطهر منهما، أعمل بشركة أمن ومن وقت لآخر يتم توزيعنا حسب احتياجات العمل، سواء بالبنوك أو بالمولات التجارية، حتى جاء ذلك اليوم الذي صادف حظي العاثر وتم توزيعي لأناوب بالمشرحة.

كنت مضطرًا لقبول هذا العمل بعد أن يئست من الحصول على عمل يناسب مؤهلي كوني خريج كلية التجارة، فكان من المفترض أن يشاركني مناوبتي الليلية – كما أخبروني – عم توفيق، وهو يعمل بالمشرحة منذ زمن بعيد عاملًا لاستلام الموتى وتجهيزهم للتشريح، حسب رغبة الطبيب الشرعي، ومن ثَمَّ وضعهم داخل الثلاجة حتى يتم تسليمهم لذويهم أو دفنهم بمقابر الصدقة، إن لم يستدل على أقارب لهم.

من المفترض أن تبدأ مناوبتي من الثامنة مساءً وحتى الثامنة صباحًا، وما إن وصلت وبدأت مناوبتي بالمشرحة، حتى غادر زميلي مبتسمًا وهو يقول: "من حسن حظك أنه لا يوجد بثلاجة المشرحة سوى ثلاث جثث ولا شيء على طاولة التشريح".

ما إن أنهى عبارته وغادر حتى انتابتني قشعريرة سرت بجسدي من شعر رأسي حتى أخمص قدمي.

تجولت ببصري بالمكان لأشاهد المشرحة من الخارج، وهي مبنى بالدور الأرضي منفصل عن مبنى المستشفى، وبعيدًا عن أقسامه المختلفة وهناك لوحة كتب عليها بخط باهت (المشرحة).

مددت يدي المرتعشة لأفتح الباب الخارجي دون أن أجرؤ على الدخول، ولكن كان هذا كفيلًا لأشاهد ممرًّا طويلًا بمنتصفه غرفة بداخلها ثلاجة الموتى، ملحق بها غرفة صغيرة بها سرير صغير وفراش

من المفترض أن أقضي ليلتي بداخلها، ولكن هيهات أن يحدث ذلك.. كما توجد منضدة عليها هاتف أرضي.

حفيف أوراق الشجر مع تلك اللفحة من الصقيع برقبتي وأذني كانت كفيلة لتجعلني أنتفض وأنا أعود للخلف لأجلس على ذلك المقعد المواجه للمشرحة بالجهة المقابلة.

ما أسوأ الوقت عندما يتلاعب بنا! نعم هو يتلاعب بنا، وإلا فكيف نفسر مرور ساعات السعادة وأيامها كلمح البصر، بينما يتوقف الزمن بلحظات الألم لتتحول الثواني إلى دهر طويل ليس له من فوات؟

وها أنا كل دقيقة أنظر لساعتي لأرى عقاربها جامدة لا تتحرك، كم وددت أن تمر الساعات ليأتي عم توفيق بموعد مناوبته لأشدد به أزري وليعيد لي ثباتي الانفعالي!

ولكن هيهات!

الساعة الآن تقترب من التاسعة، وعم توفيق لم يأتِ حتى الآن وووو...

هل ما أسمعه حقًّا هو صوت الهاتف؟

اقتربت من الباب الخارجي أكثر ليصلني رنين الهاتف مدويًا!

تُرى من يتصل الآن!

هل هو مديري يريد التأكد من وجودي أم أن هناك من يريد الإبلاغ عن حادث!

توقف الرنين للحظات ليعود مرة أخرى، وأنا أقف حائرًا بل خائفًا وعاجزًا عن التقدم للرد على الهاتف، تنفست الصعداء عندما توقف الرنين، وأنا أردد أين أنت يا عم توفيق ولماذا تأخرت عن موعدك و...

يا الله! كم أكره هذا الصوت! كان الرنين يتردد صداه بعنف ليرج المشرحة بأكملها ومن قبلها قلبي وعقلي.

فتحت الباب على مصراعيه وبحثت عن حجر ضخم لأضعه خلف الباب، حتى لا يُغلق من خلفي بعد أن قررت مضطرًّا ومرغمًا أن أدخل وأجيب على الهاتف، قرأت كل ما أحفظه من آيات قرآنيه وأنا أتقدم بخطوات ثقيلة نحو غرفة المشرحة، وسط خيالات وهواجس تجتاحني بعنف، وأنا أسير بذلك الممر ذي الإضاءة الخافتة، حتى إن ظلي تحول لعملاق ضخم: مرات يتقدمني ومرات يلاحقني، وكأنه يريد التهامي، ومن بعيد يصلني حفيف الشجر مصحوبًا ببعض موجات البرق لتتشكل لوحة سريالية عبثية تكبل خطواتي المتثاقلة.

بعد جهد وثوانٍ مرت كالدهر، وصلت إلى غرفة الهاتف، وما إن مددت يدي المرتعشة لأرد على الهاتف حتى توقف الرنين فجأة.

تنفست بعمق واستدرت بسرعة لأعود إدراجي، وما إن فعلت حتى عاود الهاتف رنينه مرة أخرى لأتجمد مكاني.

تناولت سماعة الهاتف وأنا أجيب بصوت مرتعش: "من معي"؟

أتاني الصوت لاهثًا معاتبًا: "أين أنت يا ولدي"؟

مرة أخرى أعدت السؤال: "من معي"؟

ـ "أنا عمك توفيق عامل المشرحة".

تنفست الصعداء وأنا أقول: "أين أنت يا عم توفيق؟ ولمَ تأخرت ولم تحضر إلى الآن"؟

ـ "معلهش يا بني حصلت ظروف ومش هقدر أناوب النهاردة".

ـ "إزاي يا عم توفيق! ده أول يوم ليا هنا وأنا مرعوب".

- "مرعوب من إيه بس؟ خلي قلبك جامد، وبعدين أنا عرفت إن ثلاجة المشرحة مفيهاش غير ثلاث جثث وتسليمهم بكره الظهر، يعني تنام وتتغطى والصباح رباح".
- "أنام وأتغطى إيه بس! شكله يوم مش فايت وشكلي كده هسيب المكان وأروح".
- "مينفعش يا بني، ممكن توصل حالات بأي وقت، وممكن يحضر الطبيب الشرعي بأي لحظة، ولو أنا وإنت مش موجودين هنروح في داهية وهيتقطع عيشي".
- "طيب حاول تيجي"!
- "هحاول بس موعدكش".

أنهيت المكالمة بيأس، وعدت إدراجي مسرعًا، وكأن أشباح الكون كله تلاحقني وتطاردني.

تُرى كيف ستمر هذه الليلة وأنا وحيد إلا من خيالاتي وهواجسي وثلاث جثث! لا أدري كيف تحول هذا الكون الشاسع إلى ذلك الحيز الضيق، بل كيف استطاع خيالي اختزاله بتلك المشرحة! كيف يمكن اختزال كل شيء بشيء واحد!

لم يكن أمامي سوى قتل الملل حتى لا يقتلني الخوف، فتحت الهاتف ووضعت سورة يوسف بصوت الشيخ ماهر المعيقلي، والذي أعشقه بلا حدود، ربما تهدأ روحي المضطربة ولو قليلًا.

سؤال مفاجئ قفز إلى ذهني بغته: هل أنا جبان! هل ما أشعر به الآن خوف غريزي وطبيعي أم مبالغ فيه حد الجبن!

لم أجد إجابة واضحة وصريحة لسؤالي، ولكنني وجدت مبررًا لخوفي وانفعالاتي، مبررًا ذلك بأنها ليلتي الأولى بمثل هذا المكان.. نعم كنت أحتاج إلى مبرر حتى لا أفقد رباطة جأشي واحترامي لذاتي.

نظرت لساعتي، والتي كانت تشير عقاربها إلى منتصف الليل إلا قليلًا، ازداد الطقس برودة، وشعرت بأوصالي وأطرافي تكاد تتجمد من برودة الطقس وذلك الصقيع.

هنا طرأت لي فكرة مباغتة ظننتها صائبة، ألا وهي الدخول إلى المشرحة، وإحضار البطانية من فوق الفراش، والعودة مرة أخرى حيث أجلس بالخارج.

دقائق مملة ورتيبة وثقيلة مرت عليّ وأنا في حالة من الصراع بيني ونفسي.

كان الظلام يحيط بي من كل صوب وجانب تقريبًا، إلا من ضوء القمر، والذي يأتي على استحياء بضوئه الخافت؛ ليجعل لكل شيء على الأرض ظلًّا يتشكل حسب نوعه، كالأشجار والمباني، ناهيكم عن صوت نقيق الضفادع، والذي يأتي من باحة المستشفى المقامة بجوار تلك الترعة، والتي تنمو عليها بعض الحشائش والنباتات، مما جعلها مرتعًا للحشرات والزواحف، وبعض الأصوات تتداخل لتعطي مزيجًا من الفحيح والطنين.

لا أدري لماذا يبدو كل شيء هذه الليلة استثنائي، حتى إنني ظننت أنني بكابوس سأفيق منه قريبًا، وكم تمنيت هذا حقًّا! وما عزز هذا التصور بخيالي نباح الكلاب الحاد والمتواصل، حتى إنني ظننت أن الكلاب تحاصرني، بل وتراقبني بانتظار اللحظة الفارقة والحاسمة للهجوم والانقضاض على جسدي، ولكن سرعان ما نفضت ذلك الهاجس عن تفكيري حتى لا أجن أو أفقد عقلي.

دقت الساعة الثانية عشرة ليلًا ومعها أعلن الهاتف عن قرب نفاذ البطارية، وكأن هذا ما ينقصني بهذا الوضع المزري.

أغلقت الهاتف لأحتفظ بما تبقى من شحن بداخله لاستعماله وقت اللزوم.

في غضون ذلك كنت قد حسمت أمري، أنه مما لا بد منه ولا مناص أو مفر أن أدخل بسرعة وأجلب الغطاء ليعينني على هذا الشتاء القارص، وليعيد لأطرافي الدفء المفقود.

تقدمت للأمام بخطوات متثاقلة شاخصًا بصري نحو الباب الخارجي.. فتحت الباب ولم أنسَ وضع ذلك الحجر من خلفه من الداخل؛ ليظل مفتوحًا لحين تنفيذ المهمة وعودتي من داخل غرفة الثلاجة.

نظرت إلى الخلف وهناك ألف هاتف وهاتف يدعونني ويلحون عليّ للعودة من حيث أتيت.

حدثت نفسي قائلًا وكأنني أوبخها: ما بك يا رجل! منذ متى كنت بهذا الجبن! ألا تخجل من نفسك! منذ متى وأنت تخشى الموت! بل ومنذ متى تخشى الأموات!

ألا لعنة الله على الشيطان والذي تكفل بالإجابة عن سؤالي بأن عرض على عقلي وخيالي تلك المناظر البشعة، والتي مرت عليَّ من قبل للقتلى من خلال حوادث الطريق أو حتى الحرائق.

حركت رأسي يمينًا ويسارًا وكأنني أمحو هذه الصور عن رأسي متمتمًا بسورة الناس.. تشجعت وتقدمت أكثر حيث أصبح لا يفصلني عن باب المشرحة سوى أمتار قليلة.. ما زلت أردد سورة الناس وأخذت أردد قوله تعالى: "الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس" مرات عدة حتى وصلت أخيرًا لمقبض غرفة المشرحة، والذي أدرته بتوجس وخوف ودلفت إلى الداخل.

كانت غرفة الهاتف على يميني بداخلها الفراش والغطاء، وعلى يساري طاولة التشريح، بنهايتها ثلاثة مقاعد.. وكم حمدت الله أنها فارغة ولا يوجد عليها أي جثث للتشريح بهذا اليوم!

كانت ثلاجة الموتى على يميني بعد غرفة الهاتف مباشرة، وبها الكثير من الأدراج، وكل درج منها من المفترض أن يحتوي على جثة واحدة.

كان الصمت والهدوء يغلفان المكان، مما أضاف له الكثير من المهابة والخوف.

تقدمت بهدوء نحو غرفة الهاتف، ومددت يدي لأتناول الغطاء بهدوء وروية، وما كدت أفعل حتى سمعت ضجيجًا يأتي من الخارج ليقطع ذلك الصمت ولينسف هذا الهدوء، والذي بدا وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

كان مصدر الصوت والضجيج يأتي من الباب الخارجي؛ حيث وضعت الحجر خلفه وأول ما تبادر لذهني هو الرياح والهواء، وقد ظننت أن الباب قد تحرك، مما تسبب بهذا الضجيج.

خرجت من غرفة الهاتف وتقدمت نحو باب غرفة الثلاجة، لأرى ما يحدث وما كدت أفعل حتى تسمرت قدماي، وأصاب الشلل كل أطرافي وحواسي، حتى فقدت النطق للحظات، فمن حيث أقف بمكاني وعلى بعد عدة أمتار وعلى الباب الخارجي من حيث أتيت كان يقف حيوان ضخم لم أرَ له مثيلًا بحياتي من قبل، حتى إنني لم أتبين إن كان ذئبًا أو كلبًا ضخمًا.

كان جسده الضخم يسد مدخل الباب بالكامل، وكانت عيناه الحمراوتان وزمجرته ولعابه الذي يسيل من بين شفتيه كَفِيلِينَ بإصابتي بصدمة عصبية.. تيبست على إثرها كل أطرافي.

لم يستمر ذلك سوى ثوانٍ لأستعيد تفكيري.. الآن فقط أدركت هذا المأزق الذي أصبحت فيه، وشعرت بخطورة موقفي، فثلاجة الموتى خلفي وذلك الكائن المتوحش أمامي.. وقبل أن أجد مخرجًا لي من تلك الورطة كان ذلك الحيوان يقطع الأمتار قفزًا متوجهًا نحوي، وعيناه تحدقان بعيني مباشرة، وهو بطريقه لينقض عليَّ، وبحركة غريزية وسرعة استجابة لم أكن أظن يومًا أنني أملكها، وبفضل ما تدفق لجسدي من أدرينالين عدت للخلف، وأغلقت الباب من خلفي بقوة وعنف؛ لأشعر باصطدام هذا الوحش بالباب بقوة وعنف، وصوت أنينه يخترق أذناي، وأنا ما زلت أشعر بالصدمة والرعب يسيطران على كل حواسي مما حدث للتو.

وقفت بمنتصف الغرفة وعيناي لا تبرحان ثلاجة الموتى، وعقلي خارجها يفكر بذلك الخطر الجاثم أمام الباب.. نظرت إلى ساعتي والتي تقترب من الواحدة صباحًا، مما يعني أنه يتبقى لي سبع ساعات كاملة أقضيها بجوار ثلاجة الموتى، وباب ضعيف ومتهالك يفصلني عن وحش يريد افتراسي.. فهل يمكنني الصمود!

يقولون إنه لكل فعل رد فعل مساويًّا له في القوة وموازيًا له في الاتجاه، ولكنني –ولأول مرة بحياتي– أواجه هذا الموقف العصيب لأجد نفسي عاجزًا، بل ومسلوبَ الإرادة لأقوم بأي رد فعل قوي أو حتى ضعيف.

ولشدة عجزي وخوفي وبغريزة فطرية وعفوية جلست القرفصاء واتخذت وضعية الجنين ببطن أمه، وكأنني أود العودة بالزمن للوراء.. دفنت رأسي بين يدي وأغمضت عيناي ظنًّا مني أنني بهذه الطريقة سأهرب من تلك الورطة، وقد بدت لي أنها طوق النجاة الوحيد.. حتى وإن كانت نهايتي، فأنا لا أود رؤيتها بأم عيني.. أود أن ينتهي كل شيء سريعًا وبلا ألم.. ربما يمكنني احتمال الألم، ولكنني لا أقوى على رؤيته أو مواجهته.

لست وحدي من يفعل ذلك.. الكثيرون يهربون ولكل منهم طريقته في الهروب من مخاوفه وهواجسه.

مرت الثواني ببطء مميت، كنت أسمع دقات الساعة وكأنها أجراس كنيسة أثرية تقرع لصلاة يوم الأحد.. الأدهى من ذلك والأَمَرُّ أنني أسمع دقات قلبي وهي تدق بعنف، حتى إنني بت أسمع نبضات عروقي أثناء سريان الدماء بشراييني.

أتراني أصبحت أمتلك الحاسة السادسة!

لماذا صفت كل حواسي بالأخص حاسة السمع لديَّ والتي أصبحت تنقل لي أصوات هذا الكون الشاسع بشفافية.

إلى متى سأظل هكذا!

هناك.. ومن داخلي وبعمق إدراكي.. هاتف يناديني ويلح عليَّ بإصرار غريب وعجيب.

هيا! يجب أن تنهض وتقف لتواجه كل مخاوفك وهواجسك، والتي –ومما لا شك فيه– هي نتاج خيالك وعقلك المتخم بقصص عتيقة وبالية تربينا عليها صغارًا.

فتحت عيناي وأنا بنفس وضعية الجنين، وليتني ما فعلت، لأنني فتحتهما وكأنني لم أفتحهما، فأنا لم أرَ أي شيء، وكأنني دخلت بفوهة الظلام الأبدي.

بحركة عفوية ولا إرادية مددت يدي لجيوبي بحثًا عن هاتفي لإشعال المصباح ليضيء لي المكان بعد أن انقطع التيار الكهربائي بفعل الشتاء والرياح، وهذا ما رددته بيني وبين نفسي؛ لأجد سببًا مقنعًا حتى لا تزداد مخاوفي وتتغول، ويؤججها خوفي وهلعي حتى تلتهمني.

كنت أحتاج لسبب أو مبرر وحيد.

وما إن عثرت على هاتفي، حتى قمت بتشغيله، وما كدت أفعل حتى سمعت أسوأ نغمة يمكن سماعها بمثل هذا الموقف، وهي نغمة الإطفاء لنفاذ البطارية.

نهضت مستندًا على الجدار مطأطئ الرأس، مرتعدَ الأوصال، أكاد أغرق في عرقي رغم برودة هذه الليلة الشتوية القارصة.

اقتربت من باب الغرفة، وأرهفت السمع وأنا أطرق على الباب، وما إن فعلت ذلك حتى سمعت زمجرة قوية تأتي من الجهة الأخرى للباب، جعلتني أتراجع للوراء وبمنتصف الغرفة تمامًا.

مع مرور الوقت تعودت على الظلام، فتجولت ببصري مرة أخرى لأرى ثلاجة الموتى بأدراجها المتعددة، وهنا طرأت لي فكرة مجنونة، وهي البحث عن أي بطارية أو شموع بداخل أدراج ثلاجة المشرحة البالغة (١٣) درجًا، وهي مقسمة إلى خمسة جهة اليمين، ومثلهم جهة اليسار، وثلاثة باقية بالأسفل. فقد يكون عم توفيق قد وضعها لمواجهة أي ظروف طارئة، ولكن هل أستطيع ذلك بالفعل؟

بالنهاية قررت أن أفتح بعض الأدراج وليحدث ما يحدث.

اقتربت بخوف ووجل وتوجهت من جهة اليمين وبأيدٍ مرتعشة فتحت أول درج والذي كان خاليًا تمامًا من أي شيء.. شجعني ذلك على فتح درج آخر والذي كان أيضًا كسابقه.. تجرأت أكثر وأصبح الأمر رويدًا رويدًا اعتياديًّا، ففتحت كل الأدراج العلوية والسفلية من ناحية اليمين، وكانت جميعها خالية من أي شيء.

توجهت جهة اليسار وبدأت من الأعلى وأنهيت أيضًا كل الأدراج ويدي ترتعش من قبلها قلبي.

نظرت نحو الثلاجة، والتي لم يتبقَ بها سوى ثلاثة أدراج سفلية، وهنا توقفت لبرهة ربما لأستجمع قواي المنهكة، ولأستعيد معها كلمات زميلي بالمناوبة السابقة والذي أخبرني أنه لا يوجد بالمشرحة سوى ثلاث جثث.

أتراني لم أسمعه جيدًا، أو ربما هو قصد فقط أن يخيفني ولا توجد أي جثث؟

ولكن مهلًا عندما تحدثت مع عم توفيق بالهاتف هو أيضًا أخبرني عن وجود ثلاث جثث وسيتم دفنها ظهر الغد.

يا الله! كم أصبح الأمر أكثر رعبًا وخوفًا، فالآن أصبحت أعلم مكان الجثث بالتحديد.

ما زلت أحدق بالأدراج الثلاثة وأنا بمواجهتها مباشرة، وقد تعدى الأمر لدي البحث عن بطاريات أو شموع وأصبح لدي فضول غريب لفتح الأدراج والنظر بداخلها.. ربما كان الأمر تحديًا من نوع خاص.. تحديًا لمخاوفي وهواجسي ومواجهتها.

أخذت نفسًا عميقًا وتنهدت بعد أن زفرت لأخرج كل انفعالاتي، وأنا أمد يدي وأفتح الدرج الأول من الثلاثة.

ما هذا؟ وهل يعقل ذلك؟

هذا الدرج أيضًا خالٍ ولا توجد به أي جثث!

فتحت الدرج الثاني والثالث وكانا كسابقهما خاليان من أي شيء!

إذًا أين ذهبت الجثث الثلاث! هل تبخرت! هل يعقل أنها بالثلاجة ولم أرها! هل كذب زميلي عليّ! ولماذا! هل كذب عم توفيق! ولكن.. لِمَ قد يفعل ذلك!

أنا الآن أقف بمواجهة ثلاجة الموتى، ذات الجسم المعدني المصقول، والذي يشبه المرآة ببعض الأحيان، حتى إنك تستطيع رؤية ملامحك من خلاله.

ولكن وبهذا الظلام الحالك لم تكن ملامحي هي من رأيتها، إنما رأيت ما جعل شعر رأسي يقف والدماء تتجمد بعروقي، فلم تكن الثلاجة تعكس لي وبوضوح تام سوى ثلاث هالات بيضاء تحدق بي وبعمق.

تسمرت أقدامي بالأرض لأتحول لجبل راسخ لا يستطيع الحراك، أو مبارحة مكانه.

استجمعت ما تبقى لدي من أنفاس وبقلب واجف وروح منهكة وباستسلام كامل ويأس استدرت.. وما كدت أفعل حتى رأيت أسوأ كوابيسي قاطبة.

فعلى بعد أمتار قليلة مني، وخلف طاولة التشريح مباشرة، وفوق المقاعد الثلاثة، وبهذا الظلام الحالك والليل الداكن، كانت تواجهني أسوأ مخاوفي وهواجسي وبطريقة مسرحية ثلاثية الأبعاد.

نعم! ما أراه بأم عيني ليس وهمًا من نسج خيالي أو نتاجَ خوفي، بل أنا على يقين أنني أشاهد ثلاثة جثث بالأكفان البيضاء بددت هذا الظلام الدامس.

أنا الآن أصبحت بلا حول ولا قوة بانتظار ما ستسفر عنه اللحظات القليلة القادمة.

اسمي عماد!

لا أختلف كثيرًا عن الكثيرين منكم.. فأنا من ترك الزمن أثاره على ملامحي، ونحتت الهموم بوجهي أوكارها حتى أصبحت كهلًا، وأنا ما زلت بنهاية العقد الثالث من عمري.

كيف أتيت إلى هنا؟

وأنا من أولئك الذين لا يدخلون بيوتهم حتى ينيرون كل الأضواء خوفًا من أن يلتهمهم الظلام أو تتخطفهم الأشباح.

نعم أنا مثلكم تربيت على تلك القصص والخرافات التي تتحدث عن الغول وأبو رجل مسلوخة.. وأيضًا عن عفاريت الموتى الذين ماتوا بالقتل أو الانتحار.. عن حكايات الأشباح التي تسكن المقابر وتعترض المارة بالظلام.. حتى الخوف من خزانة الملابس ومن أسفل الفراش، وكأن هناك من يختبئ بهما بانتظار أن أطفئ الأضواء فيحل الظلام ليبتلعني.

أنا عشت طفولتي خائفًا، فكل ما يحيط بي يمثل مصدر خوف ورعب وفزع.. تربيت على قصص الأشباح وغيرها، والتي سكنت عقلي وأصبحت تقتات على روحي حتى تغولت لتلتهم كل حواسي.

تربيت على الكثير من اللاءات: لا تفعل.. لا تذهب.. لا تسمع.. لا ترَ.. لا تسأل.. لا تفكر.

كثيرًا ما أشعر أنني روحَيْن وعقلَيْن وفكرَيْن منفصلَيْن يجمعهم جسد واحد.

نعم أنا الشجاع حد التهور والضعيف حد الجبن.

أنا الإيجابي عندما يتعلق الأمر بغيري والسلبي فيما يخصني.

أنا من أخشى المسير منفردًا، حتى وإن كان طريق الصواب، وأفضل المسير ضمن القطيع، حتى وإن كان طريق الهلاك.

هذا أنا الشيء ونقيضه بنفس الوقت.

أنا لست هنا وتلك الجثث ذات الأكفان البيضاء ليست حقيقية، إنما هي من نسج خيالي المتخم بالخرافات والخزعبلات.

نعم أنا داخل كابوس مزعج، وعندما أفيق من نومي سأردد تلك العبارة الشهيرة (خيرًا.. اللهم اجعله خيرًا)!

هذا تصور جيد ويناسبني، وما دام كذلك فلا يضيرني شيء إن واجهت تلك المخاوف والخرافات، سأستدير.. وعندما أفعل لن أجد أي شيء مما أخشاه أو أخاف منه.. تنفست بعمق وقمت بالعد من واحد لثلاثة.

كعجوز بالعقد التاسع من عمره، قاومت لأستدير، وما كدت أفعل حتى تسمرت أقدامي وجحظت عيناي وأنا لا أكاد أصدق ما أراه أمامي مباشرة.

هل تذكرون تلك الطاولة والمقاعد الثلاثة؟

نعم إنها طاولة التشريح

هل فكرت بشعورك عندما تطالع ثلاثة أكفان بيضاء فضفاضة تغطي ثلاثة أجساد!

نعم ثلاث جثث ترتدي الأكفان البيضاء.. بينما منطقة الرأس ليست سوى قناع يخفي ما خلفه، ما عدا العينين، والتي كانت فارغة ومجوفة، تحيط بها الهالات السوداء من تحت الجفون كمن جفاه النوم منذ سنوات.

أصبح الأمر أكثر جموحًا وجنونًا.

- هل يعقل أن يكون هذا من تأثير الحشيش! ولكنني لا أشرب الحشيش.. عدم شربي للحشيش ليس تدينًا أو حتى خوفًا من القانون، ولكن وببساطة أنا لا أمتلك ثمنه.

هل جربت ذلك الإحساس عندما تصبح أمام خيارين أحلاهما مرٌّ!

أنا الآن محاصر من جميع الجهات: فمن ناحية هناك ذلك الوحش الجاثم أمام الباب ينتظر خروجي لافتراسي، ومن جهة أخرى ثلاث جثث ترمقني بريبة وحذر.

حتى رفاهية الصراخ لا أملكها.. ناهيكم عن تلك الأمنية بالغياب عن الوعي أو الدخول بغيبوبة تنجيني من هذا المأزق.. ولكن مهلًا لماذا يحدقون بي هكذا!

بل لماذا ينظرون لي بريبة وشك!

أتراهم يخشون وجودي كما أخشاهم!

وما كدت أتحرك ناحية الغرفة الملحقة بالمشرحة، والتي تحتوي على الفراش حتى لمحتهم يتحركون نحوي مباشرة.

الآن فقط علمت كيف يقف شعر الرأس، وكيف يتجمد الدم بالعروق، وكيف تتحول الصرخات إلى صوت مبحوح وأنات مكتومة.

كانوا يلتفون من حولي، وكأنني كائن فضاء غريب أو شبح.

ما هذا! هل يتحدثون حقًّا!

نعم بـلا شك يتحدثون، فأنا أسمع أحدهم يتحدث وهو يشير إليّ قائلًا: "يبدو أنه يرانا".

رد عليه الآخر بتعجب: "ولكن كيف ذلك"!

بينما أشار إليّ الثالث قائلًا بنبرة صارمة: "هل يمكنك رؤيتنا"؟

عبثًا أحاول ابتلاع ريقي الجاف، ولكن دون جدوى

كرر سؤاله هذه المرة بغضب:

ـ "هل ترانا"؟

أنا بصوت مرتعش وبخوف:

ـ "نعمممممم".

اقترب أحدهم مني، وهو يقول: "تقدم"!

تسمرت بمكاني ليتقدم هو، وما كاد يفعل حتى تجاوزني، وكأنني هواء.. نظروا لبعضهم وهم يقولون: "نعم! ذلك يفسر الأمر".

ـ "أي أمر ذلك الذي يتحدثون عنه"!

لا أنكر أن الأمر قد أثار فضولي وبشدة، حتى إن الفضول لديّ قد تفوق –ولأول مرة منذ حضوري– على خوفي وفزعي، أدركت أنهم يروننني كما أراهم، وما دام الأمر كذلك، فبالتأكيد سيسمعونني كما أسمعهم.

هنا استجمعت كل شجاعتي لأقول بصوت واهن وبلكنة تشبه الهمهمة

ـ "عن أي أمر تتحدثون؟ وما ذلك الأمر الذي يفسره ما حدث"؟

توجه أحدهم نحوي ليجاورني متوجهًا نحو الغرفة الصغيرة، وهو يشير إليّ لأتبعه، تبعته باستسلام ليتوقف أمام زجاج النافذة، وهو يشير إليّ لأنظر حيث أشار.

ـ "رباه! ما هذا الذي أراه"؟

ولكن كيف! وهل يعقل ذلك!

كالمغيب تبعت الشبح.. ما إن وصلت لزجاج نافذة الغرفة الملحقة بثلاجة المشرحة، حتى أصابتني الدهشة والحيرة في آن واحد.. فقد وجدت عم (توفيق) مستلقيًا على الفراش يغط في نوم عميق.

نعم هذا ما أراه الآن، ويبدو لي واضحًا جليًّا.. ولكن كيف! ومتى! ولماذا!

استدرت وقد زال بعض خوفي وهلعي، لتحل محلهما الحيرة والتساؤلات.. كنت أود الاستفسار من ذلك الشبح الذي أشار إليّ لأرى عم توفيق وهو مستلقٍ فوق الفراش.

وما كدت أفعل وأنا ما زلت أهذي وأردد بحيرة وقلق (كيف)! حتى عاودتني الحيرة مرة أخرى، فقد عاد الشبح لينضم لرفاقه.

أصبح الأشباح الثلاثة يقفون مجتمعين بجوار طاولة التشريح، ولكن –ولتزداد حيرتي– يتجاهلونني تمامًا، وكأنني لست موجودًا وكأن أحدهم لم يتحدث معي أو يُشِرْ نحوي.

بجرأة أو تهور أحسد عليهما، صرخت فيهم قائلًا:

ـ "أين أنا؟ من أنتم؟ وماذا تريدون مني"؟

كررت كلماتي بمزيج من الخوف والانفعال ولم يتغير شيء.. يا الله! ما هذا! إنهم لا يسمعونني وكما يبدو فهم أيضًا لا يروننني.

ولكن مهلًا.. كيف هذا وأنا أراهم رؤية العين! وقد سمعت حديثهم عني وسألوني إن كنت أراهم أم لا، حتى إنني أجبت بنعم! وأيضًا ألم يشِر إليَّ أحدهم نحو غرفة عم توفيق وأنا تبعته لأراه نائمًا!

رباه! ما هذا الكابوس! أتراني أتخيل ذلك، أم أن كل ما حدث ويحدث ليس سوى هذيان لشخص مصاب بالرعب والخوف منذ الصغر!

هل يُعقل أنني أختلق كل هذا ولا وجود له بالواقع!

هل يعني ذلك أنه لا وجود لهؤلاء الأشباح، وأن ما دار بيننا من حديث لم يكن إلا محض خيال!

تقدمت نحوهم لأقترب أكثر وقد زالت بعض مخاوفي لتحل محلها حيرتي واضطرابي.

وما إن اقتربت منهم، حتى وجدتهم ينصتون بتركيز شديد، وهم يشيرون لبعضهم بالتوقف والهدوء، وأحدهم يشير إلى تلك البقعة التي أقف بها، وهو يقول بحسم: "هنا".

اقترب الآخران إلى حيث أشار، وهم يؤمنون على كلامه، أصابتني الحيرة والدهشة أكثر، فأنا لا أدري حقًّا ماذا يقصد بقوله هذا أو على ماذا يؤيدونه!

أشرت لصدري وأنا أردد بصوت عالٍ:

ـ "أنا هنا، هل ترونني؟ أنا أقف أمامكم". ولكن دون جدوى.

تجرأت أكثر ودخلت بينهم محاولًا جذب أحدهم من كفنه، ولكنني تجاوزته وتجاوزتهم كالهواء.

كررت محاولتي أكثر من مرة بلا جدوى، مما سبب لي الإحباط.

وهل جننت يا عماد! هم ليسوا سوى أشباح، فكيف ستلمسهم!

هنا راودتني فكرة، ظننتها ستلفت أنظارهم إليّ وستؤكد لي إن كانوا يرونني كما أراهم أم لا: توجهت نحو ثلاجة المشرحة، وقمت بفتح جميع الأدراج محدثًا ضجة عالية وصخبًا.

نظرت نحوهم لأرى ردة فعلهم، يبدو أن حيلتي قد نجحت، فها هم يتقدمون نحوي بخطوات حثيثة، وهم يشيرون نحو الثلاجة وإلى حيث أقف مباشرة ليقول أحدهم بخيفة وتوجس: "هنا"!

يا الله! ماذا يقصدون بذلك! وما معنى قولهم (هنا)!

أصابني اليأس من فهم ما يحدث لي، وما يدور من حولي.. لم يكن أمامي سوى الانتظار حتى يفيق عم توفيق، أو يأتي زميلي بالعمل عندما تنتهي مناوبتي.

استدرت نحو الثلاجة لأغلق أدراجها المبعثرة دون أي مبالاة بهم، حتى إنني تجاهلتهم وكأنهم غير مرئيين لي، فمما لا شك فيه أن هناك شيئًا لا أفهمه.. نعم هناك حلقة مفقودة.

بلا شك الأمر لن يتعدى أحد احتمالين لا ثالث لهما: أولهما أنني لست هنا، ولم يحدث أي شيء مما تخيلته حتى الآن.. نعم ربما أنني نائم الآن بمكان آخر، وما هذا إلا كابوس مرعب.

الأمر الثاني أنني بالفعل هنا، ولكن خيالي هو من يختلق كل هذه الصور والأصوات، وذلك نتاج خوفي وهلعي الشديدين وبتأثير من هلاوسي السمعية والبصرية.

أنهيت رص الأدراج لتعود كما كانت واستدرت لأستند بظهري على جدار الثلاجة، وما كدت أفعل حتى وجدت زميلي بشركة الأمن (وليد) يتقدم نحوي وعلى وجهه الشاحب ابتسامة باهتة.

تنفست الصعداء وأنا أراه أمامي كالغريق الذي يتعلق بقشة كما يقولون.. توجهت نحوه بود ولهفة، وأنا أقول بترحاب مهللًا: "أخيرًا أتيت يا رجل"!

وليد بأسى وبنفس النظرة الشاحبة على وجهه:

- "كيف أتيت إلى هنا يا عماد"؟
- "لا يهم كيف أتيت أنا، ولكن المهم أنك أنت أتيت يا صديقي، فأنا وحدي وأكاد أُجن منذ منتصف الليل، وربما أكون جننت حقًا".
- "كيف أتيت"؟ قالها بنبرة متألمة.
- "لا شيء، كالعادة لقد تم توزيعي هنا لأستلم مناوبتي، ولقد عانيت الأمرين منذ حضرت يا صديقي".

منذ الأمس وأنا بانتظار من سيأتي صباحًا ليحل محلي.. لا أدري لماذا راودني إحساس غريب ومريب، الوقت ما زال مبكرًا جدًّا لبزوغ الصباح، كذلك باب المشرحة ما زال مغلقًا، وذلك الكلب أو أيًّا ما كان ما زال جاثمًا أمامه فكيف دخل وليد.. بل لماذا أتى مبكرًا هكذا! وكيف دلف للداخل دون أن يطرق الباب أو يفتحه!

استدرت بظهري وأنا أتساءل بخوف وحيرة متسائلًا بشك: هل أختلق وجود وليد هنا!

اقتربت من الثلاجة لأحدق بها، لأرى (وليد) من خلالها، ولكنه ليس موجودًا، فأنا لا أرى أي انعكاس له.. إذًا أنا بالفعل أختلق هذا، ووليد ليس معي وليس متواجدًا بالغرفة.

وضعت يداي فوق رأسي لأعتصرها بشدة مرددًا: ما هذا الجنون! ما هذا الجنون!

ما إن رفعت يداي عن رأسي حتى وجدت (وليد) يقف أمامي مباشرة، وهو يربت على كتفي بيديه قائلًا: "رفقًا بنفسك يا صديقي.. هون عليك يا عماد"!

نظرت إليه بتوجس وخيفة، وأنا أسأله بقلق: "هل أنت موجود هنا حقًّا"؟

- "نعم يا عماد! أنا موجود وأنت أيضًا موجود".
- "ولكن، كيف؟ ولماذا أتيت مبكرًا؟ هل لديك تفسير لما يحدث من حولي أنا سأجن حقًّا"؟

صمت وليد وصمت أنا أيضًا، ليستمر الصمت بيننا لدقائق كانت كافية لأعود بذاكرتي للوراء لأتذكر صداقتي بوليد، والتي بدأت بتقدمنا سويًّا للعمل بشركة الأمن بعد فشلنا بإيجاد عمل يناسب مؤهلاتنا.

كان وليد الأقرب لي من بين الجميع، وكم حزنت عليه عندما طالته يد الغدر ليتم قتله أثناء مرافقته لسيارة الأموال عندما تم اعتراضها من قِبَل اللصوص لسرقة الأموال نعم حزنت عليه، وتملكني الحزن، وسرى الألم بكل أوصالي، وأنا أردد بصوت مرتجف: وليد ميت! وليد ميت! نعم مات صديقي وليد أثناء هجوم اللصوص على سيارة الأموال!

يا الله! هذا يعني حقًّا أنني أختلق وجوده هنا، وأنه ليس موجودًا.

ما هذا الجنون، عقلي يكاد ينفجر.

شعرت بيد تربت على جسدي وصوت وليد يأتيني بحزن وألم: "نعم يا صديقي أنا ميت".

نظرت إليه بخوف وقلق: "إذًا أنت لست سوى شبح".

وليد وهو يمد يده ليتناول يدي، ويتوجه نحو الثلاجة قائلًا لي: "عندما نظرت بمرآة الثلاجة ألم تنتبه لشيء".

ـ "نعم لم أرَ انعكاس صورتك بالمرآة، وهذا لأنك لست سوى روح أو شبح، ولكن..."!

وليد وهو يشير نحو معدن الثلاجة اللامع مردداً بألم: "أنظر إليك هل ترى شيئًا»؟

اقتربت نحو الثلاجة ممعنًا النظر لأتبين ملامحي، ولكن معدن الثلاجة لم يعكس لي سوى تلك الأشباح الثلاثة، والتي ما زالت تشير نحوي أنا ووليد، وهم يقولون: "هناك" وبتلك البقعة تزداد الحرارة بالقرب من الثلاجة.

ولكن مهلًا ماذا يعني كل هذا!

وضعت رأسي بين كفي وأنا أكاد أعتصرها مردداً: "كل هذا ليس سوى كابوس.. نعم كابووووووووس، وعما قليل سأفيق".

أو ربما.. ربما أنني أختلق كل ذلك، فلا وجود لوليد أو لأولئك الأشباح، وما هذا إلا من نسج خيالي وهلاوسي.

أتاني صوت وليد صارخًا وهو يهزني بعنف ويردد: "أنت ميت.. أنت ميت.. ميت"!

دفعته عني بعيدًا، وأنا أصرخ بشدة: "أنت لست هنا! أنت لست موجودًا إلا بخيالي أنا فقط"!

ضحكات متتالية وقهقهة عالية صدرت مني رغمًا عني، والدموع تنساب على وجنتي، ما هذا الجنون! ما هذا الجنون!

فقال وليد: "رفقًا بنفسك يا صديقي! فأنت لم تختر ذلك".

ـ "ابتعد عني ولا تقترب.. أنا أحذرك من الاقتراب مني".

ـ "أنا هنا يا صديقي.. ولن أتركك أبدًا، ولكن يجب عليك أن تدرك تلك الحقيقة".

- "أنا حي.. أنا موجود.. وأنت شبح، وهناك ثلاثة أشباح هناك".
- "تعالَ يا صديقي وستفهم كل شيء".

جلس الاثنان بالقرب من طاولة التشريح ليتحدث وليد قائلًا بحزن: "ما دمت تراني وأنا أراك فأنت ميت".

- "وماذا عن الأشباح الثلاثة"؟ وأشار إليهم.
- "نحن فقط من نراهم، أما هم فيشعرون بأرواحنا فقط دون أن يرونا".
- "وماذا يعني ذلك؟ ولماذا يرتدون تلك الأكفان البيضاء"؟
- "من تراهم ليسوا سوى الطبيب الشرعي ومساعديه.. وهم يرتدون زيهم الأبيض الخاص بالتشريح، كما أنهم يضعون الكمامات على أنوفهم للوقاية. هم مازالوا على قيد الحياة يا صديقي، بينما نحن ميتون، هم ما زالوا ينتمون للبشر، بينما نحن أرواح بلا جسد".

سالت الدموع من وجنتي عماد، وهو يردد: "ولكنني لم أعش حياتي كما أحب.. فما زال أمامي الكثير لم أفعله، أنا لم أحقق ما أريد من حياتي: هناك زوجتي وأولادي وعملي.. هناك حياة لم أعشها.. كما أنني لست مستعدًا للقاء ربي، فأنا لم أظن أنني سأموت مبكرًا و... و.. و.. و...".

هنا لم يتمالك نفسه وهو يقول: "ليتني أعود فأصحح أخطائي، ليتني أعود فأعوض ما فاتني، ليتني أعود فـ.....".!

لم يكمل عبارته حتى فتح باب المشرحة ليدخل (عم توفيق)، والذي ألقى التحية على الأطباء وهو يتثاءب وأثر النعاس ما زال بعينيه.

الطبيب الشرعي وهو يوجه كلامه لعم توفيق ممازحًا: "لا أدري كيف تستطيع النوم العميق بالمشرحة، وبجوار ثلاجة الموتى"!

عم توفيق وهو يرد ضاحكًا: "كان ذلك بالأسبوع الأول من عملي هنا، أما الآن فالجثث أصحابي، حتى إنني أكلمهم ويكلموني. دول غلابه يا بيه.. اتظلموا وهما عايشين واتظلموا ميتين، وربنا بس اللي هينصفهم"!

- الطبيب الشرعي مؤمنًا على قوله وهو يقول بجدية: "ماذا لدينا اليوم"؟

فقال عم توفيق بحزن بدا على صوته، وهو يقول متأثرًا: "هناك جثة لشاب تم قتله أثناء مناوبته بشركة مقاولات تم السطو عليها من قبل اللصوص".

- الطبيب الشرعي: "ولكنني لا أرى أي جثث بالثلاجة"!
- "سأحضرها، فما زالت بالخارج بسيارة الإسعاف، والجو بره ثلج يعني زي الثلاجة وأكثر".

ألقى عبارته وخرج مباشرة ليتبعه عماد للخارج في ذهول؛ ليراه وهو يجاهد ليخرج تلك النقالة وعليها جسد مسجى، عندما اقترب أكثر تبين ملامح الجثة بوضوح والتي لم تكن سوى جثته هو.

بحسرة وألم ألقى النظرة الأخيرة على وجهه الملطخ بالدماء، نتيجة ذلك الطلق الناري، والذي استقر برقبته مباشرة.

النبوءة

قال تعالى: «قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾» النمل

قال صلى الله عليه وسلم:

- "من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد"[١].

(١) رواه أبو هريرة، وأخرجه أبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) والنسائي في السنن الكبرى (٩٠١٧)، وابن ماجه (٦٣٩)، وأحمد (١٠١٦٧)، واللفظ لأبي داود.

- "لن أموت اليوم".. بهذه العبارة نطق الرائد أكرم فريد، وهو يطارد مجموعة من تجار السلاح بالصحراء الغربية، بعد أن اقتحموا الكمين، ولم ينصاعوا للأوامر بالتوقف.

حاول النقيب صلاح إيقافه مطالبًا إياه بانتظار الدعم قائلًا: "هذه مخاطرة كبرى"! ولكن الرائد أكرم لم يلتفت له، وقد استقل سيارته والتي تحمل لوحتها الرقم (١٣) واستمر بالمطاردة بمفرده، طالبًا من النقيب صلاح انتظار الدعم واللحاق به.

وبعد مرور ما يقرب من الساعتين، لحقت قوات الدعم بالرائد، أكرم الذي كان قد سيطر على المهربين، فقتل منهم اثنين أثناء تبادل إطلاق النيران، واعتقل من استسلموا بانتظار الدعم.

نظر النقيب صلاح إلى تلك الإصابة بكتفه، والتي كانت عبارة عن رصاصة اخترقت الكتف ولم تخرج، فقال له مذكرًا: "ألم أخبرك بأن بذلك مخاطرة كبرى". التفت له الرائد أكرم بنظرة ثابتة، وبها الكثير من التحدي قائلًا: "ألم أخبرك أني لن أموت اليوم".

بالمستشفى وبعد استخراج الرصاصة من كتفه، ابتسم الرائد أكرم بزهو قائلًا: "ما كان أحد منكم ليجرؤ على فعلها، ولكني قد فعلتها".

رد النقيب صلاح قائلًا: "صدقت! كان الأمر مغامرة غير محسوبة، وما كنت لأفعلها منفردًا".

الرائد أكرم بتنهيدة عميقة: «ومن قال لك إنها غير محسوبة"!

النقيب صلاح: "وكيف هذا؟ هل كنت تعلم بما سيحدث؟ وأيضًا لماذا أخبرتني وقتها بأنك لن تموت اليوم؟ هناك شيء ما يحيرني ولا أفهمه أبدًا.. هل ما تفعله شجاعة منقطعة النظير أم أنه تهور واندفاع بغير محله".

واستطرد قائلًا: "كلنا نعلم أنك شجاع، ولم تفشل بأي عملية قط، حتى إنك تجاوزتنا بالترقيات وأصبحت رائدًا، وربما بعد هذه العملية الأخيرة تحصل على ترقيه أخرى بينما نحن زملاؤك ونفس دفعتك أَعْلَانا رتبة على درجة نقيب". ابتسم مستطردًا: "لا نحسدك على ذلك فأنت تستحق، ولكني ما زلت أتساءل: شجاعة أم تهور"؟

ابتسم الرائد أكرم وهو يعود برأسه للوراء، وكذلك بذاكرته وهو يقول لزميله: "لا هذا ولا ذاك يا صديقي، وسأخبرك بكل شيء.. نعم سأخبرك".

أغمض عينيه وكأنه يستعيد أحداث مرت عليها قرونًا قبل أن يتنهد قائلًا: "بدأ الأمر عندما اصطدمت رأسي بحائط خرساني صلب، ونحن نتدرب على اجتياز العوائق بكلية الشرطة، كانت إصابة قوية فقدت على إثرها الوعي، وأصبت بحالة من عدم التركيز وعدم الاتزان لفترة طويلة.

تلقيت العلاج بالكلية وعند أمهر الأطباء والمستشفيات الخاصة، دون جدوى، فقد فقدت النطق تمامًا، ولم أكن أشعر بما يدور حولي.. حتى سمع أبي عن عراف مغربي شهير يعالج الحالات الصعبة والمستعصية.. ورغم تدين والدي وعدم اعترافه بالعرافين أو المنجمين، وكان يعتبرهم مشعوذين ودجالين، إلا إنه –وتحت ضغط وإلحاح من والدتي– ذهب بي إلى هناك.. وعندما دخلنا على العراف نظر إليَّ قائلًا: اجلس يا سيادة العميد! كانت دهشة والدي بالغة جدًّا كما ذكر لي هو ووالدتي، وذلك لسببين: الأول هو كيف علم هذا العراف بأنني بكلية الشرطة! والثاني كيف يقول (عميد) وأنا لم أتخرج بعد! طلب منا الجلوس ثم تحدث قائلًا: غدًا يذهب إلى كليته.

بدهشة تساءل والدي: وكيف يذهب وهو بهذه الحالة؟ هو لا يدرك أي شيء بما يدور حوله، ولا يتحدث ولا يتفاعل مع حديثنا، بل ربما لا يشعر بنا.. العراف قائلًا بثقة وثبات، وهو يشير إليّ، ونظرات عينيه الثاقبة وكأنها تخترقني وتثير بجسدي قشعريرة تصيبني حتى الآن بالخوف كلما تذكرتها: سيخرج من هنا وكأن شيئًا لم يكن، وسيعود أفضل مما كان.

هذه الكلمات أسعدت والِدَيّ رغم تشككهما بالأمر، استطرد العراف قائلًا: سيلمع نجمه لأبعد الحدود، وسيحلق مثل النسر ومن خلفه ثلاثة نجوم.

اقترب من أذني متمتمًا ببعض الكلمات المبهمة، لم يسمعها أحد من الحاضرين، حتى أنا نسيتها وكأنني لم أسمعها قط.

أشار لنا بالخروج بعد أن أعطاني تميمة عبارة عن نجمة سداسية، تتوسطها عين حمراء طالبًا مني ألا أتركها تفارقني أبدًا".

ما إن انتهى الرائد أكرم من حديثة عن نبوءة العراف وتلك النجمة السداسية حتى التفت إليه النقيب صلاح بدهشة بالغة، وتساءل قائلًا: "وهل صدق فيما قال ذلك العراف؟ هل ذهبت باليوم التالي للكلية"؟

أكرم: "أخبرني والدي بأنني بهذا اليوم صعدت إلى غرفتي مباشرة ونمت وكأنني لم أنم منذ سنوات، وعندما استيقظت صباحًا كنت وكأنني لم أصب بأي شيء قط، ولكنني لم أكن أتذكر أيضًا أيًّا من تفاصيل الحادث، أو ما حدث عند العراف، ولولا حديث والدي وتلك التميمة التي ما زلت أحتفظ بها للآن"، قال هذا وهو يخرجها من صدره أثناء حديثه لصلاح، ربما ليؤكد كل كلمة نطق بها، ورغم أن (صلاح) كان يرى التميمة تتدلى من صدر أكرم يوميًّا، إلا إنها لم تكن تعني له أكثر

من مجرد سلسلة أو تميمة حظ عادية، رغم عدم إيمانه أو اقتناعه بمثل هذه الأشياء.

استطرد أكرم قائلًا: "ولولا ذلك ما صدقت كل هذا".

بدهشة بالغة وذهول ردد صلاح قائلًا: "شيء لا يصدقه عقل حقًّا! فكيف نجح فيما فشل فيه الطب والعلم"؟ ثم نظر بتساؤل إلى الرائد أكرم متسائلًا بتعجب ودهشة: "ولكن ما علاقة كل هذا –رغم غرابته– بقولك بأنك لن تموت اليوم؟ هل العراف أخبرك بموعد موتك"؟ قالها وهو ينظر بعيني أكرم مباشرة، ثم أكمل قائلًا: "حتى وإن أخبرك بذلك، هل تصدق عرافًا يقتات على الجهل والخرافة، ألا تعلم أن ديننا ينهى عن إتيان العرافين أو تصديقهم! فكيف تسلم عقلك لمثل هذه الخرافات"؟

أكرم مبتسمًا: "هو لم يخبرني بموعد موتي، ولكن لو دققت بكلماته، كما فعلت أنا لأدركت أنى سأصبح عميدًا، وهذه هي الرتبة التي ناداني بها عندما ذهبنا إليه أول مرة.. كذلك قوله إنني سأحلق كنسر يتبعه ثلاثة نجوم، هل دققت قليلًا ماذا يعني ذلك (ثلاثة نجوم يتقدمهم نسر)؟ أليست هذه الرتبة هي (عميد)"؟

صلاح فاغرًا فاه: "أكاد أجن! وما علاقة كل ذلك بالموت"؟

أكرم: "سأشرح لك كل شيء.. ما رتبتي الآن"؟

صلاح: رائد وربما بعد العملية الأخيرة تصبح (مقدم)، وهذا هو المرجح بعد عمليتك الأخيرة".

أكرم مبتسمًا: "إذًا أنا لم أصبح عميدًا بعد، ونبوءة العراف تقول إن نجمي سيلمع وإنني سأصبح عميدًا وسيلمع اسمي.. وكل ما قاله لنا قد تحقق حتى الآن وبالحرف".

صلاح وقد ازدادت دهشته وغرابته مما يسمع، نظر إلى أكرم متسائلًا: "أثناء حديثك قلت عند ذهابنا للعراف أول مرة، وهل كانت هناك مرة ثانية»؟

أكرم: "ببادئ الأمر نسيت كل شيء ولم أعر للأمر اهتمامًا كبيرًا، ولكن مع تحقق كل ما أخبر به العراف وجدتني أحمل رغبة كبيرة بلقائه مرة أخرى، وعندما ذهبت إلى نفس العنوان الذي ذهبنا إليه، بعد إلحاحي على أمي لتعطيني إياه، لم أجده أو أتوصل له، وقد قمت بعمل تحريات عنه، ولكنها باءت كلها بالفشل، وكأنه قد تبخر بالهواء".

صلاح: "حقًّا الأمر غريب جدًّا"!

أكرم: "الأغرب من كل هذا أن العراف قد أتاني بحلم أثناء نومي، وكم أفزعتني رؤيته! فهو قد أشار إليَّ محذرًا ومهددًا، وهو يقول: لا تبحث عني مرة أخرى. حاولت إخباره بأنني أريد فقط سؤاله عن المستقبل، وهل رتبة العميد كل ما سأحصل عليه؟ وهل سأموت بعدها؟ ولكنه نظر إليّ بحدة قائلًا لي بنبرة حادة وهو يبتعد وبصوت خافت للغاية: ستلحق بها حيث ذهبت، ستلحق بها ولن تعود، ستلحق بها ولن تعود".

ما إن أنهى أكرم حديثه حتى كان جبينه قد تصبب عرقًا، وكأنه خارج للتو من سباق ألف ميل، كان هذا أغرب ما سمعه صلاح طوال حياته، ولم يخفِ دهشته مما سمعه، فردد عبارته وهو يشيح بوجهه بعيدًا: "كذب المنجمون ولو صدقوا".

غادر أكرم المستشفى بعد تعافيه، وعاد إلى عمله، وقد قام رؤساؤه بتكريمه ومنحه ترقيه استثنائية نظرًا لتفانيه في عمله، وأصبح يشار إليه

على أنه أصغر مقدم بوزارة الداخلية، وتمر الشهور وهو يؤدي عمله بجسارة وجرأة منقطعة النظير.

وبعد عامين من هذه الواقعة، وأثناء مهمة اعتيادية جمعت بين أكرم وصلاح، وجَّه صلاح كلامه لأكرم قائلًا بنبرة خافتة: «أما زلت تذكرها للآن بعد هذه السنوات"؟

أكرم: "وهل مثلها ينسى؟ هي ما زلت تعيش معي.. فإن كانت قد رحلت عني فهي لم ترحل مني.. ولا تنسَ أنها ماتت بسببي أنا.. فمن هاجمونا لم يكونوا يقصدوا ندى، ولكن كنت أنا المستهدف بالموت، فقد كانوا يبحثون عن انتقامهم مني.. وما زال هذا المشهد يملأ رأسي وعقلي وذاكرتي".

عاد بذاكرته إلى الوراء وكأنه يستعيد ما حدث من ركن خفي بذاكرته المظلمة: "كنا بالمقطم.. نتحدث عن حلمنا وعن أسماء أطفالنا، قبل أن يهاجمنا الملثمون بإطلاق النار، وقبل أن أستوعب ما يحدث أو أصد هجومهم وأبادلهم إطلاق النار كانت هناك رصاصة غادرة قد أصابت ندى بقلبها لتسقط من بين يدي ويتهاوى جسدها من أعلى المقطم على الصخور وتفارق الحياة دون وداع".

انسابت دمعة حزينة من عينيه، وهو يقول: "كانت تنظر إليّ بعينين صامتتين، وكانت تمد إليّ يديها، ولكني لم أستطع إنقاذها أبدًا".

نظر بعينيه الدامعتين إلى صلاح وهو يقول بصوت متهدج من الدموع وبحشرجة تصاحب كلماته: "هل تعلم أنني وقتها كنت أعلم أن موعد موتي لم يحن بعد.. كنت واثقًا أن الموت لن يخطفني بذلك اليوم لأنني لم أصبح عميدًا بعد، أما ندى فقد ماتت بسببي.. ماتت دون أن تحقق أحلامها.. ماتت دون وداع".

صلاح متأثرًا: "لكل أجل كتاب، والموت مقدر على كل البشر ولا أحد يموت قبل أوانه".

أشاح أكرم بوجهه بعيدًا وهو ينظر إلى الفراغ اللا متناهي، فقد خيل إليه بهذه اللحظات أنه يرى العراف يشير إليه غاضبًا وهو يتمتم بشفتيه: "ستلحق بها حيث ذهبت.. ستلحق بها ولن تعود.. ستلحق بها.. ستلحق بها".

ـ "اشتقت إليك.. هل نسيتني حقًّا"؟

كانت هذه كلمات ندى لأكرم الذي مد يده إليها محاولًا أن يلمس أصابعها لينقذها من السقوط، كانت تتهاوى أمامه وجسدها يرتطم بالصخور، بينما عيناها تحدقان به ويدها ممدودة إليه بأمل وتوسل، وهو عاجز من الوصول إليها وإنقاذها، ما أصعب ذلك الشعور بالعجز عندما تجد من تحب يضيع من بين يديك، وأنت تنظر إليه بصمت واستسلام.

انتفض من نومه وهو يفرك عينيه صارخًا بكل ما أوتي من قوة: "لاااااااا».. عندما استعاد هدوءه قليلًا نظر إلى نفسه بالمرآة متسائلًا: "ترى! لماذا يتكرر هذا الحلم؟ هل تلومني ندى على عدم إنقاذي لها أم أنها عاتبة عليَّ لظنها أنني قد نسيتها"؟

ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يردد: "ليتني أستطيع النسيان، ولكن كيف لي أن أنسى من ماتت بين يدي، من توقف قلبها من أجلي، حتى إنني ما زلت أحيا على ذكراها باحثًا عنها بكل الوجوه".

ارتدى ملابسه وأدار سيارته، وبدون وعي منه وجد نفسه يتوجه إلى نفس المكان حيث كان آخر لقاء بينه وبين ندى، جلس بسيارته بأعلى نقطه بالمقطم، يراقب السيارات تحت المقطم والأضواء المتلألئة بكل

مكان من حوله، وبنفس النقطة التي فقد فيها ندى، تنهد بعمق وهو يردد: "ما زالت روحك تسكنني، وما زال قلبي ينبض بحبك، ليتني كنت أعلم بما حدث.. ليت ذلك العراف أخبرني بهذا المصير لكنت تجنبته".

كان ما زال خلف مقود سيارته، وقبل أن يدير مفتاح سيارته للعودة من حيث أتى فوجئ بسيارة دفع رباعي من خلفه تصدمه بعنف وقوة، محاولة إلقاءه بسيارته من أعلى المقطم باستماته، حاول المراوغة والعودة للخلف أو الخروج من السيارة، ولكن الرصاص من حوله كان ينهمر كالمطر.

بهذه اللحظة أدرك أن لحظة الثأر لندى قد حانت، وأن من فشلوا بقتله سابقًا جاءوا ليكملوا ما بدؤوه ولكنهم أغبياء، بهذه اللحظة لم يكن الخوف يعرف طريقه إليه، أخذ يردد بصوت عالٍ: "لن أموت اليوم.. لن أموت اليوم".

أخرج التميمة.. وضعها بين يديه وهو يضغط عليها بقوة وبعنف، وبيده الأخرى يطلق النيران على مهاجميه قبل أن ينجح مهاجموه بحصاره لتتهاوى سيارته من أعلى نقطه بالمقطم مرتطمة بالصخور، وهو بداخلها والتميمة بين أصابعه يعتصرها بقوة.. شريط طويل من حياته يتراءى له الآن بهذه اللحظات: طفولته، أبواه، دراسته، الأوسمة، الترقيات، مغامراته، ندى حبيبته وذكرياتهم وأحلامهم وأمنياتهم.. وها هي الآن تمد إليه يدها بهذه اللحظات، وهو يقترب منها لتتلامس أصابعهم فيقبض على يدها بحنو ناظرًا لعينيها بحب.. أغمض عينيه وضغط على التميمة وهو يستعيد كلمات العراف الأولى له بأذنه عندما ذهبوا إليه بالمرة الأولى، الآن يتذكرها بوضوح كانت الكلمات تقول: "أنت الآن تتبعني بروحك.. ولكن حذار أن تتبعني بجسدك".

ها هي ندى تمد يدها إليه وهي تنتظره بالأسفل والسيارة تتهاوى مصطدمة بالصخور الناتئة بعنف وقوة، شعر بدوار وثقل برأسه، وخدر بكامل جسده كاد يفقده وعيه، وكلمات العراف الأخيرة له بالحلم تتردد بذهنه: "ستلحق بها حيث ذهبت.. ستلحق بها ولن تعود.. ستلحق بها ستلحق بها". قبل أن يصطدم بقاع الجبل، ويحل الظلام الدامس بعقله وينطفئ بريق عينيه، ويخفت نبضه وقلبه للأبد.

جلس صلاح حزينًا على صديقه، وذلك المصير الذي حل به متوعدًا أولئك القتلة بالثأر لصديقه، عاد بذاكرته لكل الأحداث الأخيرة، وما رواه له صديقه من أسرار وحكايات عن العراف.. مما جعله يشعر بالحيرة والاضطراب، بين ما تربى عليه ببيت جده محفظ القرآن، من إيمان كامل بالقضاء والقدر خيره وشره، والتسليم المطلق لله سبحانه وتعالى فيما يقدره على عباده، وأن اختيار الله هو الأفضل، وبين ما يروجه البعض عن أولئك المنجمين وما يطلقونه عليهم من ألقاب، فهذا العَالِم الروحاني، وذلك العلّامة النابغة، وذاك العالم الفلكي الشهير.

لِمَ لا وقد أصبح الفضاء يفسح لهم قنوات خاصة بهم، وبرامج خصصت لهم وميديا، ومتصلون يصبغون عليهم العلم والقداسة! كل هذا جعل صلاح بحيرة شديدة وضعته أمام الكثير من التساؤلات بلا أي إجابات، ظلت كلمات أكرم يتردد صداها بأذنه ولا تغادره أبدًا، وهو يردد بثقة ويقين وعناد: "لن أموت اليوم"! وها هو قد مات ولم يحصل على رتبة عميد كما أخبره العراف، فهو ما زال عقيدًا ولم ينل رتبة العميد.

كم أخبرتك يا صديقي أنهم ليسوا سوى مشعوذين!

أعَدَّ قهوته لعلها تعيد له بعض تركيزه المفقود، تناول الصحيفة وقلب بين صفحاتها بأصابعه، وقع نظره على ذلك الخبر المنشور مع تفاصيل الحادث وصورة أكرم وتحتها الرتبة والاسم، وكان هذا كفيلًا بأن يفقده الوعي للحظات، فقد كان الخبر يقول: وزارة الداخلية تكرم اسم العقيد أكرم، وتمنحه وسام الشجاعة من الدرجة الأولى، والذي تسلمه والده باحتفالات عيد الشرطة، كما تمنحه رتبة عميد شرفية نظير شجاعته وتفانيه في خدمته للوطن.

روح أسيرة

ـ "لا تقلقي يا أمي، سأكون بخير.. فقط دعواتك لي فهي المصابيح التي تنير إليّ الطريق وتيسر لي كل صعب".

بهذه العبارة اختتم حسن حديثه الوداعي مع أمه والتي لم تكف عن ذرف الدموع والدعاء له.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يغادر فيها حسن قريته ليكمل تعليمه الجامعي بالقاهرة.

حسن شاب مكافح، جد واجتهد حتى حصل على مجموع يؤهله لارتياد كلية طب الأسنان.. ونظرًا للحالة المادية الصعبة فسيكون مضطرًا للعمل للإنفاق على دراسته.

ركب القطار المتجه للقاهرة؛ حيث ينتظره هناك قريب له ليوفر فرصة عمل ويبحث له عن سكن مؤقت حتى يجد له سكنًا مناسبًا.

استقبله قريبه بحفاوة خاصة، عندما لمح تلك الزيارة التي يحملها حسن بيده، وتلك الروائح النفاذة التي تفوح منها، والتي تنبئ عن وليمة فاخرة.

وهم بطريقهم داخل السيارة تحدث قريبه قائلًا: "أنت محظوظ، فلقد وجدت لك سكنًا وعملًا بنفس الوقت".

حسن مبتسمًا وشاكرًا له صنيعه ومعروفه: «أرجو أن أرد جميلك ذات يوم".

فرد قريبه بحماس: "لقد تحدثت عنك مع الحاج رشدي، وهو مقاول كبير ويمتلك الكثير من البنايات، ولقد وافق أن تقيم بغرفة الحارس بالدور الأخير، والبناية بها مصعد وهو غير معطل، والبناية لم يسكنها أحد إلى الآن.. وسيعطيك راتبًا جيدًا نظير أن تهتم بالبناية، وتقوم بعرض الشقق على من يريد الشراء"، واستطرد قائلًا: "عمل سهل وبسيط ولن يشغلك عن دراستك".

ـ "لا أدري كيف أشكرك.. سيظل جميلك دين برقبتي».

توقف التاكسي أمام بنايه مكتملة البناء، ولكنها ليست مكتملة التشطيبات، أخرج قريبه بعض المفاتيح وأعطاها لحسن قائلًا: "هذه مفاتيح المصعد والشقق وغرفتك".

كانت سلسلة المفاتيح ثقيلة للغاية عندما تفحصها حسن وجد أنها تحتوي على (١٣) مفتاحًا.

دلفا إلى الداخل وأثناء صعود المصعد إلى الطابق (١٣)؛ حيث غرفة حسن بسطح البناية، انتابت حسن قشعريرة باردة بالطابق السادس، وشعر بدوار خفيف، وعندما لاحظ قريبه ذلك قال له: "يبدو أنك مرهق من أثر السفر".

أجابه حسن مبتسمًا: "هو كذلك"!

وصل الاثنان إلى حيث غرفة الحارس.. كانت غرفة بسيطة، بها بعض الأثاث المستعمل ومطبخ صغير به بوتاجاز، وبعض أغراض الطبخ، وحمام منفصل خارج الغرفة.

أعد الطعام له ولقريبه وتناولاه وشربا الشاي، ليستأذن قريبه وهو يقول له: "أتركك تستريح، وأذهب أنا لأعمالي".

قام حسن فتوضأ وصلى ما فاته من فروض الصلاة، وأخذ يقرأ بمصحفه حتى غلبه النعاس.

أخذ يفرك عينيه بذهول، هل ما يراه أمامه حقيقة أم خيال!

فتاة بالعاشرة من عمرها، بيضاء ذات عيون سوداء وشعر أسود مسترسل على كتفها، وترتدي جلبابًا طويلًا وتمسك بيدها وردة كبيرة، كانت تبتسم لحسن ابتسامة ملائكية، وهي تقول له بصوت منخفض: "لقد تأخرت كثيرًا يا حسن، لماذا تأخرت هكذا؟ أنا أنتظرك منذ مدة طويلة.. أنا هنا وحيدة وأنتظرك".

حسن وهو يلتفت يمينًا ويسارًا: "هل تحدثيني أنا"؟

الفتاة: "وهل يوجد غيرك هنا"؟

حسن: "ولكني لا أعرفك ولا أعرف من تكونين».

الفتاة: "ولكنني أعرفك وأعرف من تكون وأنتظرك وأنت تأخرت".

أعقبت كلماتها وهي تتقدم نحوه ببطء، وكلما اقتربت شعر ببرودة تجتاح أوصاله وقشعريرة تسري بكل جسده.

قطعت أوراق الوردة بين يديها، وأخذت بعض الأوراق ووضعتها بجيب قميصه وودعته وهي تغادر قائلة: "لا تتركني وحدي مرة أخرى.. فأنا خائفة جدًّا".

حسن بصوت لا يكاد يغادر حنجرته، ويشعر بخدر يستحوذ على كامل جسده: "من أنتِ؟ من أنتِ؟ تعالي هنا"!

انتفض حسن وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وينظر بأنحاء الغرفة التي تحولت وكأنها ثلاجة صغيرة تحيط البرودة بجدرانها من كل جانب.. نهض من مكانه يرتعد وهو يلهث بشدة، وما زالت البرودة والقشعريرة تسري بجسده رغم عرقة الغزير الذي يتسلل من مسام جسده وجبينه.

ذهب إلى باب الغرفة ليتأكد من إغلاقه من الداخل كما هو.. هدأت أنفاسه قليلًا عندما وجد الباب ما زال مغلقًا كما هو.

ـ "يا له من كابوس"! هكذا حدث نفسه.

فتح الباب ليذهب إلى الحمام لأخذ (دوش)، نزع قميصه وأراد التأكد من عدم وجود أي شيء مهم بملابسه قبل وضعهم بالغسيل، فتش جيوبه، وأثناء تفتيشه بجيوبه لامست أصابعه شيئًا ما بجيب قميصه، عندما أخرجه كاد يسقط مغشيًا عليه، فلم تكن سوى أوراق زهرة ممزقة ذات رائحة نفاذة.

بسرعه استعادت ذاكرته تفاصيل ما ظنه حلمًا أو كابوسًا، تذكر الطفلة وحديثها معه ووضعها لأوراق الزهرة قبل مغادرتها.

كان هذا بحد ذاته كفيلًا لإصابته بالرعب والفزع، حتى قدميه لم تعودا قادرتين على حمل جسده المرتعش، وهو يتذكر نظرة الفتاة الخائفة وتوسلها له.

كيف يكون هذا؟ وهل هو كان يحلم أم أن هذا حدث بالفعل؟

لحظات من الصمت والوجوم مرت عليه، وقشعريرة باردة تملكت جسده مع دقات قلبه التي من شدة تسارعها بعنف ظن أنها ستتوقف

فجأة.. لحظات قبل أن يقرر النزول لشراء بعض المستلزمات الناقصة من الخارج.

عندما استدعى المصعد انقطع التيار الكهربائي قبل دخوله المصعد، فنزل مسرعًا على سلم البناية، وعند عودته كانت الكهرباء قد عادت، رغم أنه لم ينسَ شراء الشمع تحسبًا لانقطاع الكهرباء بأي وقت.

استدعى المصعد وضغط على الدور الأخير، وأثناء صعوده شعر بالبرودة تنتاب كل جسده، ورعشة بأوصاله لا يعلم مصدرها، تتملك كل حواسه، وعند وصول المصعد للدور السادس شعر بالمصعد يرتج ويهتز بعنف.. حتى شعر وكأنه سينهار به إلى الأسفل.

لحظات من الارتجاج أعقبها انقطاع التيار الكهربائي، وتوقف المصعد نهائيًا.. رغم برودة المصعد إلا أنه أحس بعرقه يكاد يغرقه من رأسه وحتى أخمص قدميه.

ثوانٍ مرت كالدهر عليه من ثم فتحت أبواب المصعد.. تردد مشوبًا بالقلق مع أفكار متلاحقة بعقله وتفكيره: هل يغادر المصعد ويكمل ما تبقى من أدوار على قدميه أم ينتظر عودة الكهرباء ويشعل شمعة تنير له ذلك الظلام الدامس، الذي يغلف المكان!

استجمع حسن كل قواه وشجاعته وهو يتمتم بالمعوذتين وآية الكرسي، وغادر المصعد إلى الردهة.

رغم الظلام الدامس الذي يلف المكان إلا أنه وجد بعض الضوء المنبعث من آخر شقة بالرواق، صوت ارتطام الأبواب بالشقة من الداخل، مع ذلك الظلام الحالك وعرقه الذي يكاد يغرقه، أصابه بشلل مؤقت مع عدم القدرة على الحركة أو اتخاذ أي قرار.

صمت تام لم يقطعه سوى صوت يأتي من آخر الرواق يبدو خافتًا، ولكنه مسموع بنفس الرتم: حسن حسن حسن حسن.. تعالَ! أنا هنا.. أنا هنا.. لا تتركني هنا وحدي.. أنا خائفة.

كالمأسور وجد قدميه تقودانه إلى حيث آخر الرواق، ويدلف إلى الشقة التي ينبعث منها الضوء، ويا لا هول ما رأى! نفس الفتاة تجلس بزاوية الردهة متقوقعة على نفسها، تدفن رأسها بين يديها وصدرها، وهي تبكي بصوت خائف، وتئن بألم أنينًا يشبه مواء القطط.

وتردد نفس العبارة: "لا تتركني هنا وحدي! لا تتركني أنا خائفة! أرجوك لا تتركني"!

ـ "من أنتِ؟ وماذا تفعلين هنا؟ وأين أبويكِ؟ ولماذا هذا البكاء"؟

كانت هذه كلماته للفتاة، ولكنها لم ترد بل ظلت تردد نفس العبارة، وكأنها لا تعرف غيرها.

استجمع كل شجاعته واقترب منها، ومد يده يحاول أن يمسك يدها.. وما إن فعل ذلك حتى انتابته رجفة شديدة، وسمع ضجيجًا يملأ المكان، والأضواء تعود وتنقطع، والبرد بل الصقيع يغلف كل جسده مع ارتطام الأبواب والشبابيك بصوت مدوٍ وكأن الجحيم قد ألقى بكل حممه.

أصوات بكاء وضحكات متقطعة قبل أن يتهاوى ساقطًا على الأرض مغشيًا عليه.. لم يدرِ حسن كم مر من الوقت قبل أن يفيق.

التفت حوله يدور بعينيه يستكشف المكان كانت كل الأشياء التي اشتراها معه كما هي، وهو كان أمام المصعد بالدور الأرضي.

كيف هذا وهو يتذكر جيدًا أنه صعد إلى الطابق السادس، وأن الكهرباء قد غابت و... و... و... و... يا الله! ماذا يحدث! هل هذا معقول! الفتاة نفسها بالغرفة كانت بتلك الشقة آخر الرواق بالدور السادس.

صعد حسن السلم خوفًا من انقطاع الكهرباء أو تعطل المصعد، كما حدث أو كما خيل له فهو لا يدري حقًّا ما يحدث معه.

دلف إلى غرفته وألقى بنفسه على الأرض يفكر فيما يحدث معه.

تُرَى هل هذا حقيقي أم خيال! أحقًّا ما يظنه ويجول بخاطرة أم أنه مجرد خداع بصري! هل هي شبح! وهل هناك وجود للأشباح!

تذكر حديث جدته عن الأشباح والمقابر القديمة، وأن هناك عالمًا سفليًّا تسكنه الأرواح، نفض كل هذا عن عقله مستعيذًا بالله، مرددًا المعوذتين وآية الكرسي، ومن ثم وبحركة لا إرادية أغلق الباب من الداخل جيدًا، وأدار الراديو على إذاعة القرآن الكريم.

حاول النوم جاهدًا، ولكن كل حواسه تعانده، لا يدري أهو من الخوف أم الترقب! وهل سيتكرر هذا معه مرة ثانية أم لا!

حسم حسن أمره واتخذ قرارًا لا رجعة فيه، سيترك هذه البناية مهما كلفه الأمر، لن يستمر بها مهما حدث، هو ليس مستغنيًا عن عمره أو عقله. هكذا حدثته نفسه.

لا يدري أهو نائم أم مستيقظ! ولكن ما يشعر به حقًّا هو برودة الغرفة التي تتحول إلى ثلاجة وأوصاله التي ترتعد مع ذلك الصوت القادم من ركن الغرفة خلفه.

(حسن حسن حسن حسن) لا تتركني وحدي أنا خائفة.

ـ "أرجوك لا تتركني هنا أنا خائفة".

(حسن بصوت مخنوق: "من أنتِ؟ أخبريني من تكونين»؟

مدت له يدها تطالبه أن ينهض ويسير خلفها، كالضوء عندما يتسلل من النافذة خرجت من الباب.. فتح حسن الغرفة وسار خلفها كالمأسور أو المنوم، شيء ما قد سلبه إرادته فأصبح لا يعي ما حوله أو يدركه، حتى إنه لا يعلم إن كان داخل حلم أو كابوس أو هو بالواقع.

ظل يتبع الفتاة وهي تنزل درجات السلم، حتى توقفت عند الدور السادس.. دخلت إلى نفس الشقة آخر الرواق، وهو ما زال خلفها يتملكه رعب أقاصيص جدته وفزع وخوف يحمله معه من طفولته بالقرية.

دخلت إلى نفس الشقة آخر الرواق، وكأن روحها قد أسرت روحه.. وعندما أصبحا داخل الغرفة سمع صوت الباب الخارجي وهو يغلق خلفه بقوة وعنف.

ذهبت الفتاة إلى ركن الغرفة وأخذت تبكي، واضعة رأسها بين يديها وصدرها، وكل جسدها يرتجف ويرتعد وهي تصدر أنينًا خافتًا يهتز له جسدها الصغير.

حسن: "هل تريدين إخباري بشيء؟ أنا هنا ولن أتركك.. أعدك بأنني سأساعدك.. فقط أخبريني حتى أستطيع مساعدتك.. أنا هنا من أجلك".

نظرت إليه الفتاه نظرة رجاء ومدت له يدها، وهي باسطة كفها نحوه.

بالبداية لم يفهم ماذا تريد منه، ولكن بعد ذلك أدرك أنها تريده، وضع يده بيدها وقد كان.. مد حسن يده نحوها، وعندما تلاقت أصابعهم شعر ببرودة تتسلل إلى أصابعه وهي تضغط على راحة يده بقوة.

وفجاه وبدون سابق إنذار.. بدأ ظلام دامس يزحف ويلف المكان، وصوت ارتطام الشبابيك بالجدران وصوت أنفاس متلاحقة، وأضواء خافتة قبل أن يجد نفسه يقف متفرجًا على الفتاة، ومعها رجل تجاوز الأربعين من عمره، وهي تسأله ببراءة: "أين تلك الأشياء التي تريدني أن آخذها إلى أبي"؟

رأى الرجل يضحك ضحكة صفراء ماكرة، وهو يقول بصوت أجش: "تعالي أولًا سنلعب لعبة صغيرة أنا وأنتِ».

الفتاة ببراءة وفضول: "أي لعبة يا عمي التي سنلعبها"؟

الرجل وهو يحاول جذبها نحوه: "هل تعلمين! أنتِ جميلة كاسمك، وفاتنة جدًّا، ستصبحين كنجمات السينما عندما تكبرين".

البنت وهي تحاول الإفلات من بين قبضة يديه: "ماذا تريد يا عمي؟ أرجوك اتركني أذهب لأبي وأمي! أرجوك"!

الرجل وقد ازداد شراسة ورغبة: "وهل أتركك بعد أن أصبحتِ بين يدي! لا تقاومي وإلا قتلتك وألقيت بجسدك من الشباك".

الفتاة وهي تحاول الهروب والصراخ: "اتركني.. اتركني! سأخبر أبي عنك! اتركني».

حسن محاولًا التدخل وإنقاذ الفتاة، دون جدوى.. فهم لا يرونه ولا يسمعونه، فقط هو من يرى وكأنه يرى فيلم سينما أمامه مباشرة.

الفتاة وقد ازداد صراخها والرجل ازدادت رغبته، وبكل عنف وضع يده على فمها محاولًا كتمان صوتها خشية افتضاح أمره.

دقائق مرت وهو يضع يده على فمها وأنفها، وهي تحاول التخلص منه دون جدوى.

حسن يحاول التدخل والصراخ، ولكن بلا أي طائل.

دقائق مرت كالدهر قبل أن يرى الفتاة وقد أصبحت صامتة دون حراك ولا أنفاس تتردد بصدرها، والرجل شبه مصدوم، وكأنه لم يتوقع أن تفارق الحياة.

تركها الرجل تتهاوى بين يديه، وهو بحالة من الذهول والخوف معًا، كان يدور حول نفسه وينظر بعينين زائغتين بكل الاتجاهات، ومن ثم وقف فجأة لينظر من النافذة ليتأكد أن أحدًا لم يره من حراس المنطقة.

حمل الفتاة بين يديه ونزل درجات البناية وهو يراقب السلم من فوق، وصل إلى غرفة المصعد، والذي لم يكن قد تم تركيبه بعد، ووضع الفتاة بملابسها داخل غرفة المصعد، وأعد بعض الأسمنت وصبه على جسدها بالغرفة، حتى أصبحت مغطاة بالأسمنت بالكامل، ولا يظهر منها شيء، قام بتسوية الأسمنت حتى لا يثير الشك أو الريبة.

كل هذا وحسن يراقب بذهول وهو يصرخ تارة ويحاول منعه تارة أخرى دون جدوى، وكأنه تحول إلى هواء شفاف، وفجاه أفلتت الفتاه يدها من يده ليتهاوى أرضًا ويرتطم بالأرض بعنف وقوة.

لا يدري حسن كم من الوقت مر قبل أن يفيق ويجد نفسه أمام غرفة المصعد بالدور الأرضي.

عندما أفاق من صدمته استجمع قواه وخرج من البناية يسأل عن أقدم حارس بالمنطقة، وبعد السؤال توصل الى عم أحمد القادم من الريف، والذي يعتبر من أقدم من أتوا إلى هذه المنطقة قبل العمران.

ذهب حسن إلى عم أحمد، وبعد التحية وبعد أن عرفه بنفسه، قال له إنه يريد أن يستفسر منه عن بعض الأمور لو سمح بذلك.

عم أحمد بلهجة ودودة: "تفضل يا بني».

حسن وهو يصف ملامح الفتاة وشكلها وعمرها وملابسها لعم أحمد، الذي أصابه الذهول والدهشة بنفس الوقت: "كيف هذا يا ولدي وكأنك تصف لي (جميلة)، تلك الفتاه الملائكية".

حسن بفضول: "ومن هي جميلة يا عم أحمد"؟

عم أحمد بعد أن أخذ نفسًا عميقًا: "كانت جميلة هي الابنة الصغرى للحاج عليّ، والذي حضر ومعه زوجته من الأرياف ليعمل هنا حارسًا، ولم تمضِ شهور على عمله قبل أن تختفي ابنته فجأة ولم تترك أي أثر خلفها.. بحثنا عنها دون جدوى، ولكننا لم نجدها حتى الشرطة بحثت دون جدوى، وتردد الكثير من الكلام أن "قل أعوذ برب الفلق" هم من أخذوها إلى العوالم السفلية.. أمها لم تتحمل فراقها وأصابها المرض، كذلك أخوها وأصروا على الرحيل، وحتى الآن ما زال اختفاؤها لغزًا لم يتم حله".

عم أحمد بفضول وريبة وقد ظهرت على ملامحه بوادر الشك: "ولكن لماذا تسأل؟ وكيف علمت عنها"؟

حسن: "أرجوك تحملني قليلًا يا عمي، وأخبرني من يكون ذلك الشاب الذي سأصفه لك الآن"؟

وصف حسن شكل الرجل وملامحه وملابسه لعم أحمد الذي فغر فاه من الدهشة وهو يقول لحسن: "بالله عليك أخبرني من تكون يا ولدي؟ وما هي قصتك؟ وكيف علمت عن ضاحي»؟

حسن: "ومن ضاحي"؟

عم أحمد وما زالت الدهشة لم تفارق ملامح وجهه: «ضاحي هو ذلك الرجل من قرية أهل جميلة، والذي جاء إلى هنا عن طريق والد جميلة ليعمل، وبعد اختفاء جميلة أصابته حالة نفسية سيئة، غادر على إثرها المكان، ولم نعد نسمع عنه شيئًا منذ ذلك الوقت".

حسن وقد بدأ تجميع كل الخيوط بين يديه: "وهل قدمتم بلاغًا بواقعة الاختفاء"؟

- "نعم يا ولدي، كما أخبرتك أن الشرطة بحثت ولم تجد شيئًا فقيدت المحضر اختفاء حتى الآن".
- "أريدك أن تأتي معي إلى مركز الشرطة يا عم أحمد، وهناك ستعرف كل شيء بالتفصيل".

وأمام ضابط المباحث، روى حسن كل ما مر به من الأحداث للمحقق، والذي أصابته الدهشة مما سمعه، واستخرج أمر ضبط وإحضار بحق ضاحي، وذهب بنفسه على رأس قوة إلى مسقط رأسه، عندما وصلت قوة الضبط إلى بيته طرقا الباب وسألا عنه، وإن كان متواجدًا من عدمه.

ردت أمه، وهي امرأة طاعنة بالعمر بحزن بالغ والألم على وجهها: "إنه بغرفته لا يغادرها أبدًا".

استطردت قائلة: "منذ عودته من القاهرة من عمله حارسًا، وهو يهذي ويصرخ وتنتابه حالات هياج يصعب عليه السيطرة وقتها، وكأنه قد مسه جن والعياذ بالله". تساقطت دموعها وهي تقول بحزن بالغ وأسى: "قد ذهبنا به إلى كل الشيوخ بلا نتيجة فهم يقولون إن هناك – اللهم احفظنا– يسكنون جسده، وذلك عندما ذهب للعمل بمصر.. ومنهم من يقول إن النداهة قد أخذت عقله".

توجه الضابط مع القوة إلى غرفة ضاحي يرافقهم حسن، وفتحا الباب، كان ضاحي يجلس بركن الغرفة متكورًا على نفسه، ويضع رأسه بين صدره ويديه، وكانت لحيته كثيفة وشعره أشعث، وكأنه لم يشذبه منذ سنوات، وعندما رأى الضابط والقوة أخذ يصرخ ويردد قائلًا: "أنقذوني.. لا تتركوني هنا". وانتابته نوبة هيجان وضحك هيستيري مع بكاء وصراخ هيستيري.

أخذه الضابط إلى موقع البناية، وكان قد طلب معدات لحفر غرفة المصعد، وكلما اقتربت السيارة من البناية كان ضاحي يزداد رعبًا وخوفًا، ويزداد صراخه وهياجه حتى وصلا إلى موقع البناية وتوجها لغرفة المصعد.

قام فريق الصيانة الخاص بالمصاعد برفع المصعد للدور الأخير، وإيقافه حتى لا يستدعيه أحد.

وبالمعدات الثقيلة قام فريق آخر بتكسير الأسمنت ورفعه من الغرفة، ساعات مرت والجميع بحالة ترقب وانتظار حتى بدأت تظهر ملابس جميلة، وبعد دقائق مرت على الجميع كالدهر ظهر جسد الفتاة.

وقد ظهرت الدهشة على الجميع عندما بدأت ملامح الفتاة تظهر، فهي كانت كما هي بملامحها لم يتغير منها شيء، وهذا ما أكده عم أحمد الحارس الذي أخذ يبكي، وقد سالت دموعه على خديه وهو يرمق ضاحي بنظرة احتقار.

وما إن رأى ضاحي ملامح جميلة حتى انتابته نوبة هيستيرية، وأخذ يركض نحو السلالم صاعدًا إلى الأعلى، وهو يصرخ: "أنقذوني.. أنقذوني».

لوهلة ظن الجميع أنه يريد الهروب فلاحقته قوات الشرطة إلى أعلى، وعندما وصل إلى الطابق السادس، وهو نفس الطابق الذي بدأت به تلك الأحداث، توجه إلى غرفة المصعد وفتح بابه، والذي كان بلا مصعد، وبمجرد دخوله تهاوى جسده، ليسقط من هذا الارتفاع ويهوي إلى قاع غرفة المصعد بنفس المكان الذي تم إخراج جميلة منه.

وما إن ارتطم بالكتلة الأسمنتية حتى انفجر الدم من رأسه وجميع أنحاء جسده، ونظرة الرعب والهلع لم تفارق عينيه.

قام الضابط باستدعاء الإسعاف لتشريح الجثتين.. كذلك تم استدعاء أهل جميلة لدفنها بمقابر العائلة.

غادر الجميع بعد طلب الضابط من حسن الحضور غدًا لإتمام المحضر لإغلاق القضية، بعد أن شكره لجهوده بحل هذا اللغز الذي ظل عصيًّا عن الحل لفترة طويلة.

صعد حسن إلى غرفته ليستريح من عناء هذا اليوم.. وأحداث اليوم لا تفارق ذهنه.

وكم كان يشعر بالحزن والأسى على ما حدث لجميلة، تلك الفتاه الملائكية الرقيقة والتي ذهبت ضحية لنزوات حيوان بشري لم يرأف بطفولتها البريئة ولا جسدها النحيف.

تنهد وهو يحدث نفسه قائلًا: ترى كم جميلة تفقد حياتها كل يوم! فإن لم يكن بالموت الجسدي فبالموت المعنوي.

كم ضحية ما زالت تئن في صمت وبخوف وخجل!

كم جميلة ذهبت ضحية مجتمع يجلد الضحية ويتحاشى مواجهة المجرم!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة، فعلى قدر سعادته لأنه ساعدها في التحرر من الأسر وقد عادت إلى أهلها أخيرًا ليجتمع شملها بمن تحب، وليأخذ المجرم عقابه خزي بالدنيا ونار الآخرة؛ حيث الحكم العدل هو الله.

استرخى محاولًا النوم ليستعيد بعض نشاطه، ولكن تلك البرودة وذلك الضباب من حوله جعله ينتفض من غفوته ليرى جميلة مقبلة نحوه بابتسامة ملائكية، هذه المرة لم تكن خائفة.. لم تكن تبكي أو تئن.

مدت يدها له بالوردة وهي تشكره، قائلة له: "شكرًا لأنك لم تتركني وحدي.. شكرًا يا حسن".

لوحت له بيدها مبتعدة وما زالت تلك الابتسامة لم تفارق شفتيها.

صباح اليوم التالي عندما استيقظ حسن كان يشعر بالنشاط والحيوية، فتح النافذة ليستنشق عبير الهواء، وعندما استدار للخلف لمح تلك الوردة على الوسادة، وكأنها قد قطفت الآن، فقد كان عبيرها وشذاها يملآن الغرفة كلها.

فـــوبيـــــا

اليوم الأخير بالعمل، ولأول مرة يشعر عم ربيع –كما يحلو له أن يناديه العاملون بالصحيفة– بهذه المشاعر المتضاربة منذ تعيينه موظفًا بأرشيف صحيفة البداية.

تساءل بينه وبين نفسه: تُرَى.. هل هو سعيد بانتهاء الأشغال الشاقة –كما كان يسميها– ومقبرة الروح –كما يطلق على مكتبه بالأرشيف ساخرًا– أم أنه حزين لتركه العمل الذي تعود عليه منذ أربعين عامًا!

هل تصبح العادة إدمان حقًّا!

ربما هو لا يدري عن حقيقة مشاعرة الدفينة.. هل يحب عمله أم يكرهه!

نظر إلى الموظفين وهم يتبادلون النظرات نحوه: أتراهم مشفقين عليه أم فرحين بمغادرته! ربما لا هذا ولا ذاك. كم هي عميقة المشاعر الإنسانية! وكم من الصعب إدراك كنهها على حقيقتها لا كما تبدو!

مع كثرة التساؤلات وعلامات الاستفهام بداخل عقله، حدث نفسه قائلًا: هل حقًّا عندما يصبح الضجيج بعقولنا صاخبًا ولا يحتمل، يحل صمت مميت يحتل كل الأركان!

مع نهاية اليوم –وكالعادة بالهيئات والمصالح الحكومية– أعد له زملاؤه بالعمل حفلًا بسيطًا للتعبير له عن حبهم له وامتنانهم لما قدمه على مدار هذه السنوات الطويلة، ابتسم ساخرًا.. فهذا الحفل يبدو له وكأنه حفل تأبين، تناول حقيبته الجلدية، وضع بها أشياءه البسيطة وشهادة التقدير وغادر بعد أن ألقى النظرة الأخيرة على أربعين عامًا سيتركها خلفه وكأنها لم تكن.

سار عم ربيع بالرواق الطويل، والذي بدا وكأنه لا نهاية له، بنهاية الرواق كان هناك درج يفضي للأسفل للمغادرين، وعلى يمينه درج يفضي للأعلى للصاعدين لمكتب رئيس التحرير والمحررين، وباقي أقسام الصحيفة.

وعلى عكس اتجاه عم ربيع –والذي كان يجب أن يسلك الدرج الذي يفضي للأسفل– وجد نفسه مدفوعًا للدرج الذي يفضي للأعلى، كالمغيب كان يصعد الدرج بلا وجهة محددة، هل حقًّا سيصعد للأعلى وهو من عاش حياته يخشى الصعود للأماكن المرتفعة والشاهقة حتى أصبح مشهورًا بين الجميع بفوبيا الأماكن المرتفعة!

هل هناك علاقة بين عملة بالأرشيف ببدروم الصحيفة وخوفه من الأماكن الشاهقة!

حدث نفسه قائلًا: هذا اليوم هو الأخير لي هنا، وهذه فرصتي الأخيرة للتغلب على مخاوفي.

رغبة جامحة سيطرت عليه، شعور بالإثارة والتحدي قد تملك منه واستولى على كل حواسه.

كرر كلماته محدثًا نفسه: «أليس الرب واحدًا والعمر واحدًا! لِمَ نعيش أسرى للخوف من المجهول"!

كم من لحظات ضاعت من بين أيدينا بسبب مخاوف ليس لها وجود سوى بعقولنا! هل حقًّا يصعب علينا التحرر من مخاوف نحن صنعناها بعقولنا وغذيناها فكبرت وتغولت حتى أصبحت تتحكم بنا!

هل نحن أسرى لسجن صنعناه بأيدينا والسجان هو الخوف!

شعر بالدماء تجري بعروقه وكأنه قد أصبح شابًّا بالعشرينات من عمره، عندما بدأ حياته المهنية بهذه الصحيفة بنفس البناية، والتي لم تكن سوى ثلاثة طوابق وقد أصبحت الآن (١٣) طابقًا.

كان قرار عم ربيع حاسمًا وقاطعًا بنفس الوقت، فهو سيصعد إلى الطابق الأخير وسينظر من هذا العلو الشاهق إلى أسفل، ولن يتراجع للخلف ككل مرة.. وفرائصه ترتعد وقدماه تصبحان بلا قيمة، فلا تقويان على حمله، وأسنانه تصتك ببعضها البعض ليشعر برغبة عارمة في التكوم على نفسه، والتقوقع بوضعية الجنين حتى يستعيد نفسه ورباطة جأشه مرة أخرى، بعد جهد يستهلك الكثير من كرامته ومشاعره.

كم كان يخجل من نظرات الأقارب والأصدقاء لعلمهم بخوفه الشديد من الأماكن المرتفعة، ولكن لا.. لن يستمر هذا بعد الآن، سيتغلب على خوفه سيهزم قهره ليشعر بوجوده من جديد.

قرر الصعود على الدرج بقدمية درجة درجة، وكأنه يحاول كبت انفعاله وقلقه والتغلب على ما يعتريه من توتر، كان كل طابق يمثل له مرحلة عمرية من حياته: نشأته، وطفولته، ومراحل التعليم المختلفة، وشبابه، حياته الزوجية، وأبناءه.

أثناء صعوده لم يكن يعبأ بالصاعدين أو المغادرين، كان يرد التحية بلا وعي، الآن أصبح قريبًا للغاية، هل يكمل أم يتراجع!

هاتف داخلي يقول: له ما زلت بأمان فلا تغامر.. ما زال الوقت ممكنًا للتراجع والعودة للمنزل بسلام وبأقل الخسائر.

ليرد عليه هاتف آخر وبعنف وكأنه يزلزله: أن تموت شجاعًا وحرًّا خير لك من الحياة جبانًا وتافهًا أم أنك قد تعودت على الخنوع والذل والمهانة.

انتفض محدثًا نفسه بقوة: كلا لا تراجع ولا استسلام.

هذا التحدي هو من سيعيد له كبرياءه الضائع منذ صباه وحتى تلك اللحظة الحائرة، وهو على مشارف الستين من عمره، والذي شعر أنه قد سُرق منه دون أن يدري.

أصبح الآن على مشارف الطابق الأخير، لا صوت يعلو على صوت المعركة، وأنفاسه المضطربة ودقات قلبه التي تحولت إلى ضجيج داخلي.. دلف إلى باب المدخل المؤدي إلى السطح، كم كان المنظر مهيبًا من هذا العلو الشاهق!

وقف بالمنتصف والعرق يتصبب من جبينه بغزارة، وهو يشعر بدوار كاد يفقده وعيه، تناول منديلًا ورقيًّا ليزيل عرقه، وربما بعض توتره.

تأمل السماء الزرقاء وقرص الشمس يتوسطها ليجعل لكل شيء ظلًّا، نظر إلى ظله على الأرض، وكأنما يريد أن يتحدث معه ليثنيه عن قراره، وها هي نفس الأعراض تتكرر مرة أخرى، فهو لا يشعر بقدميه، رغم أنه ما زال بالمنتصف ولم يتجه إلى حافة السطح، كان من موقعه يرى كل شيء من حوله صغيرًا، تقدم ببطء باتجاه السور، يقدم قدمًا ويؤخر أخرى بخوف وهلع.

ماذا بك يا ربيع! هل حقًّا تخشى الموت!

هكذا حدث نفسه ليرد عليها: وهل تسمي ما عشته وتعيشه حياة!

قرأ بعض ما يحفظ من آيات القرآن، وردد بعض الأدعية متجهًا ناحية السور بجسده المتهالك، دقائق مرت علية كالساعات، وهو يقاوم خوفه وعجزه، وبالنهاية وصل إلى حافة البناية.. مرت عليه الدقائق ثقيلة وكأنها دهرًا.

أغمض عينيه.. فلم يجرؤ أن ينظر من هذا الارتفاع الشاهق دفعة واحدة، أخذ يتمتم بشفتيه محاولًا فتح عينيه ببطء وهدوء، بعد عدة محاولات نجح بذلك ونظر إلى الأسفل، شعور بالدوار وألم بمعدته، وتثاقل بقدميه، حتى ريقه قد جف ورؤيته أصبحت مشوشة.

كم أراد أن يتكور بمكانه ليجلس؛ حتى يلتقط أنفاسه ولو لثوانٍ، جاهد كثيرًا ليظل واقفًا وهو ينظر إلى الأرض تارة، وإلى السماء تارة أخرى.

مرت دقائق حتى شعر بأنفاسه تنتظم، ودقات قلبه تعاود النبض، وأصبحت قدماه أكثر ثباتًا، شعر بارتياح وسعادة غامرة وهو ينظر إلى السماء وكأنه يراها لأول مرة بحياته، لأول مرة يشعر بأنه على قيد الحياة، وأن خوفه الذي ظل أسيرًا له عمره بأكمله كان بلا مبرر وغير منطقي.

هل حقًّا نحن من نصنع خوفنا حتى يصبح فزاعة تنغص علينا حياتنا وتجعلنا أسرى للوهم وظلام الجهل! وكيف نخشى من شيء نجهله ولم نتعامل معه!

فجأة وبلا أي مقدمات وبلا تفكير مسبق، وبخطوة مفاجئة وربما متهورة، وكأنها تتويج لما حدث، وتأكيد على انتصاره المؤزر، قفز عم ربيع إلى سور السطح ليقف عليه، فجأة أصبح عم ربيع يقف على السور رافعًا ذراعيه وكأنه يحتضن الحياة التي حرم نفسه منها على مدار سنوات عمره الطويلة.

لأول مره يشعر وكأنه قد امتلك الكون كله، أغمض عينيه رافعًا راسة للأعلى، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يتهاوى من هذا الارتفاع الشاهق باتجاه الأرض.

الغريب بالأمر أنه لم يشعر بالخوف أو القلق.. كان يشعر أنه أصبح خفيفًا للغاية وكأنما قد تحول إلى ريشة بمهب الريح تحركها الرياح يمينًا ويسارًا، ولأول مرة بحياته يشعر أنه حر بلا أي قيود.

الآن هو يرى حياته بكل وضوح، وكأنها شريط سينمائي أمام عينيه: أسرته، وحياته، أمه، وأبيه، وأخوته، ودراسته، أقاربه، وجيرانه، وزملاءه، عمله، وما مر عليه من محررين وأدباء، حقبٍ مرت بها البلاد، مانشيتات تم تغييرها لعدم رضا البعض عنها، وصحفًا تمت مصادرتها حتى لا يغضب المسؤولين، إنجازات تم محو من قاموا بها ليتم وضع اسم المسؤول الحالي، وكأن التاريخ يعيد نفسه منذ عهد الفراعنة وحتى الآن، عندما كان الفرعون يزيل اسم الفرعون السابق من على المعبد ليضع اسمه والذي سيزيله من سيأتي بعده.

تاريخ مشوه وحقائق مزيفة وفساد متواصل وعقول مغيبة، فزاعات تستخدمها الدول وأخرى نستخدمها نحن فيما بيننا بالبيت والعمل والشارع.

كان جسده يهوى وروحه تصعد بعكس قانون الجاذبية، الآن يشعر باقترابه من الأرض، لا شك أن الارتطام سيكون قويًّا وقاسيًا، ولكن لا بأس.. كان الأمر يستحق هذا وأكثر، شعر بهزة عنيفة تجتاح أوصاله.

العجيب بالأمر أنه كان يشعر بما يدور حوله، وكأنه مشارك بالحدث، وليس بمعزل عنه، كأنه يرى خيالات وأشخاص يتحركون بسرعة بملابسهم البيضاء، والكثير من الأجهزة الموصولة برأسه وقلبه،

وكان آخر ما سمعه هو قول أحدهم وهو يتنهد بعمق: لم أرَ بحياتي حالة كهذه، لقد كانت جلطة قوية أصابته بآخر يوم له بعمله وهو جالس على مكتبه.. وعندما أتى به زملاؤه إلى المستشفى كان بين الحياة والموت، بل لقد فقدناه بالفعل لمدة عشر دقائق كاملة، وكما تعلمون فتوقف القلب لعشر دقائق كان كفيلًا بتوقف الدماغ لعدم وصول الأكسجين إليه وتلف الأنسجة، ولكنه قد عاد بمعجزة حقيقية، لقد فعلنا ما بوسعنا والشفاء يأتي من عند الله.

دعوة للموت

كان يومًا ربيعيًّا مورقًا، ورائحة الزهور تخطف الأنفاس عندما نظر رأفت عثمان إلى المرآة للمرة الخامسة، وهو يبتسم بزهو ويطالع صورته أمامه بالمرآة مقلبًا تلك الدعوة بين يديه، وهو يقرأ بصوت مسموع وكأنه يتأكد من حقيقة الدعوة:

- "الأستاذ/ رأفت عثمان

يسرني أن تكون ضيفي هذه الليلة الساعة السادسة مساء بڤيلا الماسة لإتمام صفقة الموسم

أحضر الأوراق اللازمة لذلك

ستمر عليك الليموزين لتقلك إلى هناك

لا داعي لأن يتسرب خبر الدعوة لأحد".

حدث نفسه بزهو قائلًا: لا شك أنني سأحصد الكثير من المكاسب من وراء هذه الصفقة الكبيرة.

نظر إلى ساعته وكانت تشير إلى الخامسة وعشر دقائق، عندما أخبره حارس العقار أن هناك سيارة فخمة بانتظاره أسفل البناية.. نظر

إلى هيئته للمرة الأخيرة، وهو يحمل حقيبته الجلدية مغادرًا شقته إلى حيث تنتظره الليموزين.

بمكان آخر ومن ناحية أخرى وبسيارة ليموزين سوداء؛ حيث كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة والنصف تقريبًا.. كان يجلس الدكتور وائل السيد، وهو يطالع تلك الدعوة بين يديه متسائلًا عن سر الغموض الذي يحيط بها وعن سر الإلحاح بعدم معرفة أي أحد بها.

حدث نفسه قائلًا: ربما لأنها صفقة كبرى، أو ربما لأنها صفقة تشوبها بعض المخالفات القانونية.

انفصال كابينة القيادة عنه جعله متوترًا أكثر، فكم كان يحتاج لأي شخص يتحدث معه، حتى وإن كان السائق الذي لا يعرفه، فربما أزال عنه بعض التوتر الذي يزداد كلما اقتربت عقارب الساعة من السادسة.

وبمعزل عنة وبمكان آخر، وفي جو مشحون بالترقب والتوتر، كان الثري العربي (مالك سليم) يتطلع إلى ساعته، والتي كانت تشير عقاربها إلى السادسة إلا عشر دقائق.

تحدث بصوت خفيض محدثًا نفسه: دقائق قليلة تفصلني عن أهم الصفقات بحياتي، إنه بحق مشروع العمر، وكم أتمنى ألا يحدث ما يعكر صفو هذه الصفقة التي ستعوضني خسائر البورصة بالفترة الماضية، وتعيد لاسمي الثقة التي ضاعت مؤخرًا.

وبمكان آخر وسيارة ليموزين أخرى.. وعلى بوابة ضخمة كانت تعبر السيارة الليموزين الى الداخل؛ حيث ممر ممهد طويل تحيط به الأشجار بكثافة من كل جانب.. لا يدري سعيد لماذا اعتراه الخوف كلما تقدمت السيارة للأمام، نظر بساعته للمرة العاشرة خلال خمس دقائق، وكانت تشير إلى السادسة إلا ثلاث دقائق.

حدث نفسه متسائلًا عن سر هذه الدعوة الغريبة، وتلك السيارة الفاخرة والتي لم يكن يحلم بالمرور إلى جوارها، وهو الشخص البسيط والذي لا يتعدى كونة سمسارًا للأعضاء البشرية –كما يقولون عنه– بينما هو يرى نفسه وسيطًا يفعل خيرًا، فهو صلة الوصل بين البائع والمستشفى، ولا يهمه مَنِ البائع أو المشتري، كل ما يهمه هو عمولته التي سيحصل عليها من الطرفين.

عندما وصلت السيارة التي تقل (رأفت عثمان) إلى مشارف الڤيلا شعر بالانقباض والتوتر، فالمكان بعيد جدًّا عن العمران، وكأن الڤيلا قد وجدت من العدم بهذا المكان.. "ولكن ما شأني أنا بذلك هي صفقة ربما أقل من ساعة وتنتهي لأحصل على عمولتي الكبيرة» هكذا حدث نفسه ليطمئن ويهدأ قليلًا.

عندما وصلت سيارة الثري (مالك سليم) إلى حيث باب الڤيلا فُتِحَ باب السيارة أوتوماتيكيًّا دون أن يخرج السائق، ليجد نفسه أمام باب الڤيلا، والذي فُتِحَ دون أن يدق الجرس، نظر حوله ليرى الكاميرا المثبتة على مدخل الڤيلا.. استجمع رباطة جأشه وتوجه الى الداخل بخطوات ثابتة.

عندما دخل كان بهو الڤيلا، هو أول ما وقعت عليه عيناه، وما إن تجول بعينيه ورأى المحامي (رأفت عثمان) والدكتور (وائل) و(سعيد) حتى شعر بالارتياح، وقال بصوت مرتفع: "ما هذا الجو البوليسي، أشعر وكأننا بفيلم لأجاثا كريستي[1]".

بادره الدكتور وائل قائلًا: "ظننت أنك صاحب الدعوة يا سيد مالك"!

(١) أجاثا كريستي كاتبة إنجليزية ولدت في ١٥ سبتمبر ١٨٩٠ وتوفيت في ١٢ يناير ١٩٧٦ وقد اشتهرت بكتابة روايات الجرائم.

هنا قال (مالك سليم) بدهشة: "أنا ظننت أن الدعوة للاجتماع من قبل المحامي ممثلًا للمجموعة المالكة للمشروع".

ما إن قال ذلك موجهًا بصره إلى المحامي (رأفت عثمان) الذي توجهت له كل الأعين ليقول بابتسامة باهتة: "أنا مثلكم.. أتيت بدعوة وظننت أن حضوري بخصوص صفقة المستشفى الاستثماري لوضع التصور القانوني وكتابة العقود".

هنا تحدث سعيد قائلًا: "وأنا! ما سبب وجودي؟ ومن وجه لي هذه الدعوة"؟ قال ذلك وهو يخرج الدعوة من جيب قميصه، عندما نظر إليه الجميع وكأنهم يرونه للمرة الأولى، فلقد أدرك الجميع –بما فيهم سعيد– أنه غير ذي صفة بينهم، فهو لا يرتقي لمستواهم الاجتماعي، وليس له دور أو صفة بذلك المشروع الضخم.

تحدث الدكتور وائل بصوت يشوبه القلق والانفعال قائلًا: "لا أشعر بالارتياح ما دام لا أحد منا صاحب الدعوة، فمن وجه لنا هذه الدعوة؟ وما سبب ذلك؟ ولمن هذه الڤيلا؟ كل هذه أسئلة تحتاج إلى إجابات".

قال المحامي: "فلننتظر لدقائق، وإذا لم يتضح الأمر نغادر جميعنا من هنا".

فبادرهم مالك سليم: "لنجلس على المائدة ونتحدث، على كل حال ليس هناك ما نخشاه".

توجه الجميع إلى المائدة، كانت مستطيلة وخلفها أربعة مقاعد جلدية فاخرة، على كل مقعد ورقة مطبوعة توضح صاحب المقعد، كان وضع المائدة والكراسي مصممًا بحيث عندما يجلسون يشكلون صفًا واحدًا.

عندما توجه كل منهم إلى مقعدة ليجلس، كان هناك مشروب بفنجان به ورقة توضح اسم صاحب المشروب.

دكتور وائل: "إنه مشروبي المفضل، شاي مثلج مع النعناع".

بينما قال سعيد: "كذلك أنا يعجبني مشروب الصودا".

وكان أمام المحامي عصير ليمون مثلج، بينما أمام الثري العربي كوكتيل فواكه وهو ما يفضله بالعادة كما قال.

أخذوا يتحدثون ويتشاورون عن هذا الوضع، وهل هو مزحة من أحد الأصدقاء أو خدعة ما، بينما يتناولون مشروبهم، فما كادوا أن ينتهوا من المشروب حتى انطفأت الأضواء وعم الظلام المكان.

حاول كل منهم إخراج هاتفة ليضيء المكان، ولكن لم ينجح أحدهم بفتح هاتفه وتشغيله، فقد كانت هواتفهم معطلة بشكل كامل، مما جعل الرعب والخوف يتسلل إلى قلوبهم.

هنا أخرج سعيد قداحته وأشعلها ليتضح المكان ولو قليلًا، فهتف الثري العربي قائلًا: "فلنغادر الآن، يبدو أن هذا فخًّا وقد وقعنا فيه".

نهض الجميع باتجاه الباب، عبثًا حاولوا فتح الباب بشتى الطرق الممكنة، ولكنه كان مغلقًا بشفرة مكونة من ثمانية أرقام.. تجولت أبصارهم على الضوء الخافت الصادر من قداحة سعيد، ليتبينوا أنحاء القيلا بهلع شديد، ولكن دون جدوى، فالنوافذ مرتفعة للغاية، تزينها قضبان حديدية ذات سمك كبير.

وبينما هم يحاولون إيجاد أي منفذ، إذ جاء صوت من خلفهم، عندما نظروا إليه لم يكن سوى شاشة تلفاز ضخمة –معدة على وضعية الصوت فقط– والصوت الصادر منها يطلب منهم العودة إلى مقاعدهم بهدوء.

عاد الجميع إلى مقاعدهم، وهم ينظرون إلى بعضهم بخوف وترقب، وعندما جلسوا جميعًا أتاهم صوت أنثوي يحمل حزنًا لا حدود له وهو يقول: "لماذا قتلتم ابني؟ لماذا تشاركتم جميعًا بقتل ابني؟

لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ هل تعلمون ماذا فعلتم بقتلكم له؟ أنتم لم تقتلوه هو فقط، أنتم قتلتموني أنا.. أخذتم حياتي وعمري.. أنتم أشعلتم نار الثأر والانتقام بقلبي وروحي".

نظر الجميع إلى الشاشة، وهم يحدقون إلى بعضهم قائلين: "مَنْ قتل مَنْ! نحن لم نقتل أحدًا.. من أنتِ؟ من تكونين؟ وماذا تريدين منا؟ ولماذا أحضرتِنا إلى هنا"؟

الصوت الأنثوي بِغِلٍّ وحقد وتشفٍ: «أنتم هنا لتنالوا جزاءكم.. أنتم هنا لدفع الحساب.. أنتم هنا لأخذ أرواحكم الآثمة من أجسادكم.. ربما تتطهر من أفعالكم الدنيئة".

المحامي بصوت متهدج: "سيدتي ربما هناك التباس بالأمر، أنا رجل قانون مهمتي إنقاذ البشر لا قتلهم".

الدكتور: "أنا كذلك.. مهمتي إنسانية لمداواة آلام البشر لا قتلهم".

سعيد: "وأنا إنسان بسيط لا ناقة لي ولا جمل بهذه الحياة، أنا بالكاد أجد قوت يومي ولم أؤذِ أحدًا يومًا ما".

الثري العربي: "سيدتي هناك خطأ ما، ربما اختلط عليكِ الأمر، لسنا من تريدين قتلهم حقًّا".

الصوت الأنثوي: "أنتم قتلة.. وستنالون جزاءكم خلال أقل من ساعة عندما يعمل السم الذي تناولتموه مع المشروب، سوف أستمتع برؤيتكم وأنتم تتلوون كالثعابين من الألم، فما أنتم إلا ثعابين وحيوانات على هيئة بشر".

ازداد خوفهم ورعبهم وشعروا بالألم يمزق أحشاءهم، والعرق يتصبب على وجوههم، وهم يتوسلون لها بأن تتركهم ليذهبوا إلى المستشفى وتلقي العلاج، وكل منهم يصرخ وهو يردد أنه بريء.

أتاهم الصوت قائلًا بهدوء: "مهلًا.. ما زال أمامكم الكثير لتموتوا، وقبل أن يحدث هذا ستعرفون جريمتكم، ولكن قبل هذا أريد أن أخبركم أن هناك ترياقًا لهذا السم يكفي لشخص واحد فقط، وهو من سيغادر هذا المكان ناجيًا بحياته".

هنا ارتفعت أصوات الجميع وكل منهم يقول: "لا أريد الموت"!

منهم من يقول إنه ما زال شابًّا، ومنهم من يقول إن لديه أطفالًا، ومن يقول إنه العائل لأسرته.

هنا طلب منهم الصوت الأنثوي بحزم وصرامة أن يتناول كل منهم ما يجده تحت مقعده ويضعه أمامه.

فرحوا ظنًّا منهم أن الترياق هو ما سيجدونه، بينما اعتلت الصدمة وجوههم، وهم يضعون ما تناولوه أمامهم، فلم يكن سوى سلاح ناري محشو بالرصاص منزوع الأمان.

الدكتور وائل: "سيدتي ما زالت الفرصة أمامك لإنقاذ أرواحنا، فقط أتركينا لنغادر أو أخبرينا عن جريمتنا التي تتحدثين عنها".

السيدة: "عودوا إلى الوراء بذاكرتكم.. تقريبًا عامين مضيا.. هل حقًّا نسيتم ما فعلتموه؟ هل تشعرون براحة الضمير؟ هل نسيتم تلك المرأة التي ظنت أن قلوبكم الرحيمة هي من جعلتكم توافقون على ولادتها بذلك المستشفى الاستثماري دون مقابل، لأنها تحتاج لرعاية خاصة أثناء الولادة نظرًا لحالة القلب السيئة".

وجهت كلامها لسعيد قائلة: «هل نسيت تلك الفتاة التي أخبرتها عن الثري العربي الذي يفعل الخير يا سيد سعيد"!

- "وأنت يا دكتور وائل، هل نسيت مريضتك التي كنت تقوم برعايتها باهتمام حتى ظنت أنك ملاك من السماء لتدير لها ظهرك بعد الولادة مباشرة، وأنت تخبرها أن الطفل لم يحتمل ومات"!
- "وأنت يا أستاذ رأفت، أيها المحامي الكبير.. ألم تحضر الأوراق التي تثبت أنني موافقة وأتحمل كل الأضرار لي وللمولود! ألم أشكرك عندما وضعت بيدي ذلك المبلغ لأتدبر حياتي"!
- "وأنت سيدي الثري ذائع الصيت.. ورجل الخير.. هل نسيت حقًّا أم أنك تناسيت! هل أخبرتني عن شعورك كلما نظرت إلى طفلك! هل ما زال قلب ابني بداخله يعمل بشكل جيد! كم أشتهي أن أسمع دقاته! وهل أفادت خلايا ابني في شفائه من ذلك الميكروب بدمه"!

استطردت قائلة بدموعها: "ألم تستخدموا ابني قطع غيار لابن ذلك الثري! ألم تمزقوا جسد ابني الرضيع وتبيعوه بالقطعة! هل حققتم المكاسب من وراء ذلك! تُرَى كم ربحتم! هل تعلمون.. أود حقًّا أن أعلم كم يساوي جسد طفل رضيع! كم يساوي ألم أم وحزنها على فلذة كبدها"!

حل الوجوم والصمت على المكان، ليعم الظلام مرة أخرى، والصوت يقول: "الآن أنتم ستواجهون أنفسكم.. قتلتم من قبل من أجل المال، والآن ستقتلون من أجل حياتكم.. من يملك الجرأة ليضغط على الزناد سيعيش".

ما إن أنهت كلامها، حتى دوى بالمكان صوت الرصاص والصراخ ليعم الضجيج بالمكان، ويسود الهرج وصوت الأنين، عاد الضوء فجاه

إلى المكان؛ حيث كان سعيد يقف حاملًا مسدسه، بينما المحامي والثري مضرجين بدمائهم، والدكتور وائل مصاب بكتفه يئن من شدة الوجع.

عاد الصوت مجددًا ليقول: "للأسف الترياق لا يكفي سوى شخص واحد، بينما أنتم اثنان.. و... و...".

قبل أن تنهي كلماتها، كان سعيد يتهاوى ويسقط أرضًا، بينما الدماء تتدفق من رقبته كالنافورة، والدكتور وائل يصرخ: "لا أريد الموت.. أرجوكِ! أتوسل إليكِ! أنا بريء! لم أفعل ذلك.. لم أفعل ذلك".

السيدة: "حقًّا لم تفعل ذلك! لماذا إذًا قتلت هؤلاء"؟

وائل: "لو لم أقتلهم أنا لقتلوني هم.. كان يجب أن أعيش، أنا وحيد أمي، أرجوكِ أخبريني أين الترياق، أشعر بروحي تغادرني".

كان يزحف على بطنه عندما شعر بمن يركل المسدس من يده.

نظر إليها كانت سيدة في بداية العقد الثالث من عمرها، ولكن الحزن يزيدها سنوات فوق سنوات عمرها.

نظرت إليه وهي تقول: "كادت جريمتكم تموت ولا يكشفها أحد، لولا تلك الرسالة التي كشفت لي ما فعلتموه، وكان مرفقًا بها عقد إيجار الڤيلا، وموعد تجمعكم هنا، وتلك كانت فرصتي للانتقام وأخذ الثأر ممن حرموني من طفلي ومن الحياة».

الدكتور وائل: "أعلم أنني فعلت أخطاء كثيرة بحياتي لست راضيًا عنها، ولكنني لم أقتل طفلك، صدقيني لم أفعل ذلك! حتى علاقتي بالسمسار والمحامي وذلك المشروع الاستثماري لم أكن راضيًا عن ذلك، نعم انحرفت عن قسم مهنتي وارتكبت الكثير من الأخطاء بحياتي، ولكني لم أقتل طفلك".

أخذت المسدس من يد المحامي واقتربت منه قائلة: «لا تعتقد أن الخطايا تظل بدون حساب.. بالنهاية ستدفع الثمن إن كان لي أو لغيري".

نظرت بعينيه وهي تقول: "الترياق بالطابق العلوي.. إن استطعت الحصول عليه ستعيش". تهللت أساريره وهو يحاول النهوض على قدميه، رمقته بنظرة أخيرة وهي تطلق رصاصتين على قدميه الاثنتين مغادرة باتجاه الباب، وهو يصرخ ويئن متوجعًا، قبل أن يفقد الوعي ويصمت بلا حراك.

وضعت شفرة الباب لتغادر القيلا التي أُغْلِقُ بابها أيضًا تلقائيًّا، خطوات قليلة قبل أن تأتي الليموزين السوداء لتقلها، جلست على مقعدها والدموع تملأ عينيها، أخرجت هاتفها.. طلبت الرقم وهي تقول: "جلستي مع طبيبي النفسي بعد دقائق.. هل ما زال الموعد قائمًا أنا بالطريق".

ومن نافذة المكتب البيضاوي الزجاجية بالطابق (١٣) نظر أحدهم إلى تلك اللوحة المضيئة الضخمة التي توضح موقع المستشفى الاستثماري الأكبر بالشرق الأوسط وهو يقول: "الآن ستكون لي أنا فقط".

قال ذلك وهو يطالع الصحف التي تحدثت عن تلك الجريمة التي هزت الجميع بموت المستثمر العربي والطبيب الشهير والمحامي ومعهم شخص مجهول على يد سيدة مختله نفسيًّا، وجدت جثتها ملقاة من أعلى هضبة المقطم.

ابتسم بخبث وهو يقول: "رغم أنكم لم تقتلوا طفلها حقًّا.. ولكنكم بشكل أو بآخر قد استحققتم موتكم".

أنت التالي

تقول التعويذة إن الشيطان يتمثل لكل إنسان مرة واحدة بالعمر، فإن صادف ذلك وجوده مع من يحب وتَغلُب عليه مشاعر الرضى خاب كيد الشيطان وانصرف بلا رجعة.

أما إن تمثل له وحيدًا بعزلته تَغلُب عليه مشاعر الحزن والسخط سرق روحه النقية وأسرها وأطلق روح الشر بداخله.

تُرى هل يفسر ذلك شعوري المتزايد بقتل حماتي بعد أن قتلت زوجتي اللحوحة عقب محاولاتها المتعددة إخراجي من عزلتي والتي استمرت لثلاثة عشر ليلة!

لِمَ لا وزوجتي تعشق والدتها، وكانت آخر كلماتها وأنا أنحرها من الوريد للوريد توسلها لي رؤية والدتها للمرة الأخيرة.

الآن وكزوج مخلص سأنفذ وصيتها وسأجمعهما سويًّا.

تُرى من يطرق الباب الآن!

تذكرت لا شك أنها حماتي قد أتت بعد أخبرتها إن ابنتها مريضة.

انتبه يا صديقي فربما تكون أنت التالي...

أحدهم

منذ فترة من الزمن.

ربما ستكون هذه آخر كلمات سأكتبها بمفكرتي.. ولا أدري حقًّا هل ستصلكم أم ستدفن هنا وتبقى سرًّا إلى الأبد!

نحن الآن في الثالث عشر (١٣) من يناير بداية العام الجديد.

الطقس بارد والسماء ملبدة بالغيوم، وتلك السحب تلقي ما بجوفها لتحيل تلك الرمال إلى مستنقعات موحلة.

لا نكاد نشعر بأطرافنا.. تكاد تتجمد من الصقيع، حتى عندما نحرك أصابع أيدينا أو أقدامنا لا نشعر بأدنى شعور فقط، تيبس المفاصل وزمهرير يسري بالأوصال، صفير الرياح من كل صوب هو الصوت الوحيد الذي نسمعه هنا بلا توقف، وكأنه لحن يعاد تكراره كلما انتهى.

فقدنا المؤن أو أغلب ما كان معنا، بعضنا جرحى بإصابات بليغة، وهناك من ينازع سكرات الموت، وفقدنا الكثير من أصدقائنا إما برصاص العدو أو بقسوة الشتاء وندرة الطعام.

نحن الكتيبة الثالثة مشاة آخر من تبقى من اللواء التاسع بعد هزيمته أمام قوات العدو وبعد انسحاب أغلب القادة أو وقوعهم بالأسر وهم ينسحبون.

عندما علمنا بالانسحاب اجتمعنا وقررنا أن نقاوم حتى آخر رصاصة، فنموت على تلك الأرض أو يأتينا المدد ونحن نقاوم.

أنا الجندي رقم ٢١٩، وربما ما أكتبه الآن هو ما سيتبقى لكم منا، فإن متنا أو انتصرنا اعلموا أننا لم نفرط في ذرة تراب واحدة، وأننا دفعنا أرواحنا ثمنًا لهذا التراب، واعلموا أن دماءنا كانت ثمنًا للحفاظ عليه، وما حافظنا عليه بالدماء لا تفرطوا فيه بالذهب.

اليوم التاسع والعشرون

تناقص عددنا كثيرًا.. أصبحنا ثلاثة عشر من كتيبه قوامها مئة وثلاثون، عندما أتى الأمر بالانسحاب استجاب له النصف تقريبًا ولا أدرى هل نجحوا بالعودة للخطوط الآمنة أم قتلوا أو تم أسرهم.

من تبقى منا كان يقاتل بصدره، وسلاحه بيده بلا طعام كافٍ أو ماء، فقط عهد قطعناه ويقين نؤمن به بأن الموت بأرض المعركة أشرف لنا من الحياة بذل الانسحاب والهزيمة.

بعض من كانوا يموتون بين أيدينا كانوا يبتسمون وهم يقولون لنا سنوفر لكم بعض الطعام والماء بموتنا فلا تتراجعوا ولا تستسلموا.

اليوم هو الثلاثون من يناير

نحن بتلك الحفر التي نحتمي بها من هجمات العدو، نسمع أصوات طائرات استطلاع العدو فوق رؤوسنا، يأتون ثم يذهبون ليعودوا مرة أخرى، وبعدها يطلقون الرصاص بغزارة.

كنا نبادلهم إطلاق النار بغزارة ومن كل الاتجاهات فيظنوا أن أعدادنا كبيرة وأننا نملك الكثير من السلاح فيتراجعون.

اليوم الواحد والثلاثون من يناير

هذا يوم لا ينسى ولا يمحى من الذاكرة، يوم يجب أن يسجله التاريخ ويبقى للأجيال القادمة، بهذا اليوم استطاع الجندي رقم ١١٧ وببطولة منقطعة النظير أن يسقط طائرة مقاتلة من طراز ڤانتوم بقذيفة (أر بي جي) أصابت ذيل الطائرة، فأخذت تدور حول نفسها بكل الاتجاهات قبل أن تسقط بجوار إحدى الدشم الخاصة بنا، ومقتل كل من كان بداخلها برصاصاتنا.

لحسن الحظ وجدنا داخل الطائرة الكثير من السلاح والذخيرة وأيضًا الطعام والماء.

اليوم هو الأول من فبراير

بهذا اليوم فقدنا نصفنا تقريبًا ست طائرات على الأقل بدأت بإلقاء القنابل من على ارتفاع قريب من الحفر، وإطلاق النار بغزارة وربما كان هذا ردًّا على إسقاط الطائرة ومقتل جنودهم.

بهذا اليوم كان الموت قريبًا مني للغاية، كنت أشم رائحته تملأ حواسي وكنت أشعر به يرافقني مع أنفاسي كلما تنفست.

ولولا صديقي رقم ١٠٩ لكنت بعداد المفقودين، فهو ما إن رأى القنبلة تسقط من ارتفاع منخفض للغاية حتى التقطها بيده مغادرًا الحفرة باتجاه الطائرة فانفجرت به وكادت تسقط الطائرة، لولا مغادرتها مع السرب محلقة لأقصى ارتفاع.

اليوم الثاني من فبراير

نجح الجندي رقم ١٣ من إصلاح اللاسلكي باستخدام بعض المعدات من الطائرة التي أسقطناها، وتواصل مع قائد وحدتنا الذي تراجع للخطوط الخلفية مع من نفذوا الانسحاب.

أخبرناهم أننا نبلي حسنًا وما زال الموقع بحوزتنا ونحتاج فقط للإمدادات لنؤمن هذا الموقع ونصد هجمات العدو.. كانت إجابته مخيبه للآمال: "لن نستطيع الوصول إليكم قبل خمسة أيام"، وأنهى حديثه قائلًا: "لقد خالفتم الأوامر العسكرية، ولم تنفذوا الانسحاب التكتيكي" وأن مواجهة الأمر تقع علينا.

اليوم الثالث من فبراير

لا طائرات استطلاع أو هجوم، كان الصمت هو من يخيم علينا.. أشعلنا بعض النيران بإحدى الحفر، وجلسنا نستشعر بعض الدفء ونرسل دعواتنا للسماء، ونتناول بعض قطع البسكوت المبلل بماء المطر وحبات الرمل.

أصبحنا أربعة كل من تبقى منا.

أنا الجندي ٢١٩ والجندي ٣٧ والجندي ٥٤ والجندي ٧٨ عندما نظرت إلى وجوههم وكأنني أراهم للمرة الأولى.. كدت ألا أعرفهم؛ شحوب الوجه وشعر اللحية الكثيف والشوارب التي تغطي نصف الشفة العلوية، وذلك الهزال الذي أصابهم غيَّر من ملامحهم كثيرًا، ولكن كل هذا لم ينل من عزيمتنا أبدًا.

الجندي ٧٨ متحدثًا بثقة: "عدم هجومهم اليوم من الجو مؤشر لتخطيطهم للاستيلاء على الموقع بالهجوم المباشر ربما بالمشاة والدبابات".

اتفق معه بذلك الجندي ٣٧، بينما قال الجندي ٥٤: "وما الفارق أن يأتوا بالطائرات أو الدبابات، بكل الأحوال سيجدوننا بانتظارهم، ولن نذهب بعيدًا"، وأخذ يصفر لحنًا بشفتيه وكأنه يعزف على ناي حزين.

ابتسمت لكلماته وراقني ذلك اللحن والذي حرك بي حنينًا خفيًّا لمن فارقتهم، فأخرجت صورة أسرتي، والتي تجمعني بهم، وكنت قد كتبت عليها بعض العبارات من الخلف للذكرى.

وكل من المتواجدين أخرج غرضًا ما من جيبه يشم فيه رائحة أحبائه، تعاهدنا إن قدر لأحدنا إدراك المدد أو النجاة والعودة للوطن أن يحمل أغراضنا لأسرنا.

اليوم الرابع من فبراير

لأول مرة نشعر بدفء الشمس.. كان يومًا أشبه بالربيع منه بيوم من أيام الشتاء القاسية، وبينما كان يجلس بالقرب مني الجندي ٥٤ إذ سالت دموعه غزيرة، سألته "ما يبكيك؟ هل هو الخوف من انتظار الموت"؟

فأجاب: "أبدًا لا يخيفني الموت ولا يؤلمني، بل ربما أجده راحة لي مقارنة بما نقاسيه هنا، ولكن ما يؤلمني هو ألم من أحب وانتظاره لغائب قد لا يعود أبدًا". هونت عليه مربتًا على كتفه. أعقب كلماته بتنهيدة عميقة من ثم قام بإخراج صورة صغيرة من جيبه، وهو يقبلها بعشق ويحتضنها بعينية، قبل أن يريني إياها دون أن يبعد بصره عنها، وكأنه يخشى أن تكون نظرته الأخيرة.

وما إن وقعت عيناي عليها حتى شهقت قائلًا: "يا لها من ملاك تشبه القمر برقتها وبريق عينيها! هل هي زوجتك أو ربما خطيبتك"؟

قال: "بل هي أكثر من هذا، إنها توأم الروح ونبض القلب ونور العين، ولا يربطني بالحياة سوى تلك الأنفاس التي تتردد برئتيها".

قلت له: "إن كان الأمر كذلك، لماذا لم تتراجع مع من تراجعوا لتجتمع بمن تحب وتهوى"؟

نظر إليّ قائلًا: "وكيف أنظر لعينيها وأرى أمامي جنديًّا مهزومًا قد فر من المواجهة وهي من تعودت أن تراني أمنها وأمانها.. لا يا صديقي لن أخون وطني فيها حتى وإن كنت أعشقها".

ابتسمت دون رد، فلم أجد ما قد يعبر عن مشاعري بهذه اللحظة.

من كان يسمع حديثنا لقال عنا إننا مجانين لا شك بذلك، فهذا الحديث لا يتناسب أبدًا مع ما ينتظرنا أو بالأحرى ما ننتظره، فربما الموت فقط هو ما نشم رائحته منذ أتينا إلى هنا واحتمالات الموت هي الأقرب، ولكن كيف ومتى فهذا ما نجهله.

وصدق ما توقعناه بالفعل.. رَتَل من الدبابات يتقدم ويحاصر الموقع من كل الاتجاهات، وكأنما يعلم أين وكيف سيقاتل.

بادلناهم إطلاق النيران بكثافة، ولكنهم يتقدمون باتجاه الدشم التي نحتمي بها، وهم يختبؤون داخل الدبابات، كان عددهم ست دبابات ونحن أربعة أفراد، بكل المقاييس العسكرية نحن انتحاريون بانتظار الموت، ولكن وبحركة مباغتة، غادر الجندي ٣٧ دشمته والتف من خلف إحدى الدبابات قبل أن يعتليها ويفتح الفوهة العلوية ويلقي بداخلها قنبلتين بعد أن قام بنزع الفتيلتين ويقفز على الأرض متراجعًا إلى الخلف.

أخذت الدبابة تتقهقر وتدور حول نفسها لتنفجر بعد ثوانٍ معدودة وتتحول إلى ركام.

عندما حاول الجندي ٣٧ العودة إلى حيث دشمته كان قد فات الأوان لذلك، فإحدى الدبابات تطارده باستماته لتدهسه تحتها.

وهنا حدث ما لم يكن بالحسبان وما يقف أمامه العقل كثيرًا غيرَ مصدقٍ ومسجلًا أروع آيات الشجاعة والبطولة: فأثناء تقدم الدبابة وهي تطارد الجندي ٣٧ وتمطره بوابل من النيران، انشقت الأرض عن الجندي ٧٨ وهو يتقدم باتجاه الدبابة حاملًا قنبلتين منزوعتي الفتيل، وما إن داسته الدبابة حتى تحول الجميع هو والدبابة ومن بداخلها إلى أشلاء.

أصبحنا ثلاثة جنود مقابل أربع دبابات، ولكن ما فعله الجندي ٧٨ كان له أكبر الأثر في قلب موازيين المعركة منذ البداية.. رعبهم وخوفهم منا وحماسنا.

حملت أنا الـ «أر بي جي" وصوبته بدقه نحو إحدى الدبابات، مما أصابها بعطب كبير فتوقفت، وهنا أمطرناها بالقذائف والنيران حتى اشتعلت تمامًا وخرجت من المعركة.

ومرة أخرى حاول الجندي ٣٧ تكرار فعلته والتف حول إحدى الدبابات، ولكنه عندما فتح الفوهة جذبه الجنود داخلها فانفجرت بالجميع، وتحولت إلى كتلة من اللهب.

الآن اثنان مقابل اثنان.

نظرت إلى الجندي ٥٤ مبتسمًا، وأنا أشير إلى حافظتي والتي بها متعلقاتي بينما أخرج هو صورة حبيبته ليقبلها ويضعها بجيبه.

أشرت له بالعد تنازليًّا حتى الرقم واحد، وانطلقنا سويًّا، وكلًّا منا يحمل "آر بي جي" وشريط الذخيرة فوق كتفة، كنا نطلق الصيحات مع الرصاص بلا توقف أو هوادة.

عشر دقائق أو أكثر مرت ونحن على هذا الحال، وعندما توقفنا عم الصمت كامل الأنحاء، وكأنه لم تكن حربًا بهذا الشكل، دمرنا أنا وصديقي الدبابتين ومات كل من بداخلهما.

نظرت إلى صديقي فوجدته يقع أرضًا والدماء تنفجر من فوق ركبته بغزارة، عندما اقتربت منه كان يتألم بشدة، وكانت نصف الرجل ممزقة ومهترئة من فوق الركبة وتحت الفخذ، وبينما أساعده على النهوض إذ أشار إلى جيبه؛ حيث الصورة محاولًا إخراجها.. ومن ثم غاب عن الوعي ليحل الظلام وأنا وحيد.

اليوم الخامس من فبراير

كنت قد ضمدت جراح صديقي، وإن كنت أشك أن يبقى على قيد الحياة، وإن نجح بذلك، فلا بد وأن يتم بتر قدمه من فوق الركبة، وها أنا كما أخبرتكم أكتب هذه الكلمات ولا أدري هل ستصلكم بيوم ما أم ستبقى سرًّا للأبد وتموت معنا.

الآن سأضع مفكرتي بالحافظة.. سأحمل سلاحي منتظرًا أن يأتي المدد من جنودنا، أو أحافظ على عهدي مع هذه الأرض وأُدفن فيها إلى الأبد.

بعد عشرين عامًا

رجل تجاوز الخمسين من العمر، أمام شاهد أحد القبور والدموع تنساب من عينيه، بينما تقف زوجته وأولاده بفخر وإجلال وتقدير، وهو يقول: "لم أنسك يومًا واحدًا يا صديقي، ولم ينسك التاريخ، فلولا صمودك معنا ما انتصرت قواتنا، بعد أن أجبرنا العدو على التقهقر وأوقفناه لحين استرداد قواتنا بقية الألوية والكتائب".

أخرج صورة من جيبه، وهو يقول لقد طبعت منها الكثير ووزعتها على الصحف، وضع باقة الزهور على شاهد القبر قبل أن يتوجه إلى السيارة؛ حيث زوجته وأبناؤه.

تأمل زوجته كثيرًا وقبل أن ينطق بحرف واحد بادرته قائلة: "أعلم أنه لولا هذا البطل ما عدت لي وما اجتمع شملنا، سأظل دومًا شاكرة له صنيعه وحفاظه على حياتك، بينما كنت فاقدًا للوعي بقدم شبة مبتورة".

ابتسم ابتسامة واسعة وهو ينظر إلى عينيها، بينما يلوح بالتحية العسكرية إلى شاهد القبر مودعًا تلك الرخامة الحمراء؛ حيث تم حفر الاسم وتاريخ الوفاة بالخامس من فبراير، وقد كُتب بكل فخر الجندي رقم ٢١٩ مشاة.

ساعدته ابنته برفع ساقه الصناعية ليدخل إلى السيارة، وهو يتأمل تلك القطعة المعدنية، والتي نقش عليها اسمه واسم سلاحه وكتيبته ورقمه: الجندي رقم ٥٤ الناجي الوحيد من الكتيبة الثالثة مشاة.

الأشباح لا تموت

تمددت بفراشي منهك القوى، وإن كنت أشعر بالانزعاج من حضورنا المفاجئ لمنزلنا الريفي بتلك المنطقة النائية.

هذه ليلتي الأولى هنا، ولا أدري سر هذا الشعور الذي يعتريني بالقلق والانقباض.

أمي بغرفتها ترتب ملابسها بعد أن قامت بتنظيف غرفتي دون الإفصاح عن هذا الانتقال المفاجئ. كم أشفق عليها من ذلك السر الغامض الذي تحفظه داخلها ولا تبوح به لأي أحد حتى أنا! ورغم إلحاحي عليها تقوم دومًا بطمأنتي وتجاهل الأمر.

حتى غياب أبي المفاجئ وعدم حضوره لرؤيتنا منذ سنوات، رغم وجوده على قيد الحياة سر ولغز، لم يتم فك شفرته للآن.

لا أدري كم استغرقت بالنوم من شدة الإرهاق! ولكن ظل هذا الشعور بالانقباض يصاحبني.

أعدت أمي وجبة الإفطار وجلسنا سويًا لتناولها: "أمي هل حقًا كنا نقطن هنا قبل الذهاب للمدينة"؟

الأم: "نعم يا بني، وليتنا لم نغادر".

ـ "لماذا غادرنا إذًا»؟

الأم وقد لمعت عيناها وشردت بعيدًا، وهي تشيح بوجهها لتنظر نحو نافذة المنزل المهجور المقابل لهم، وهي تقول في محاولة منها لتغيير دفة الحديث: "هل أعجبتك غرفتك"؟

ـ "حسنًا يا أمي! كالعادة فلن أستطيع الحصول على أي إجابات منك".

نهضتُّ للبحث عن الكلب متسائلًا أين قد يكون! طال بحثي عنه دون جدوى لتخبرني أمي أنه ربما يكون بحديقة المنزل.. أمضيت يومي كله أبحث عن كلبي دون جدوى.

صعدت إلى غرفتي لترتيب أشيائي وملابسي بالخزانة، تناولت كرتي الجلدية وقبل إيداعها بالخزانة لهوت بها قليلًا، وأثناء لهوي بها قفزت من نافذة الغرفة المرتفعة على يمين فراشي، وما إن نظرت من النافذة ولاحقتها بنظري حتى وجدتها تذهب بعيدًا لتستقر فوق العشب بالمنزل المهجور المواجه لنا.

قررت النزول وإحضارها، وما هي إلا ثوانٍ حتى أصبحت بالأسفل لأتوجه مباشرة إلى حديقة المنزل المهجور، مر الكثير من الوقت أثناء بحثي عن الكرة دون جدوى رغم يقيني بأنها استقرت فوق العشب.

شعرت بخيبة الأمل، فقررت المغادرة، وأثناء مغادرتي لاحت مني التفاتة للأعلى لأرى ستائر الغرفة العلوية تتحرك، ومن خلفها ظل ضخم توارى بمجرد نظري للأعلى.

غادرت المنزل بشعور مختلط ما بين الخوف والتوتر.

أمي بنبرة حازمة: "أين كنت"؟

أخبرتها بما حدث معي، ولحيرتي الشديدة جحظت عيناها، وهي تصرخ بشدة محذرة لي بتكرار هذا الأمر مهما حدث.

أنا بتساؤل: "ألم تخبريني يا أمي بأن هذا المنزل مهجور ولا يقطنه أحد"؟

استطردت قائلًا: "هناك أحدهم خلف تلك الستائر السوداء".

أمي بلهجة آمرة: "اذهب لغرفتك، وعدني أنك لن تكرر هذا مرة أخرى".

ـ "حسنًا يا أمي! أعدك". قلت ذلك بضيق أثناء صعودي لغرفتي.

استلقيت فوق فراشي محاولًا التخلص من تلك المشاعر التي تجتاحني.. تجولت ببصري بالغرفة لأتوقف أمام تلك المرآة الكبيرة نسبيًا، والتي تأتي أمام فراشي مباشرة.

نهضت من فراشي لأتفقدها، وبينما أقترب منها إذ وجدت الغبار يعلوها فلا يمكنني تبين ملامحي.. قمت بتنظيفها جيدًا حتى أصبحت صالحة للاستخدام.

نظرت لوجهي مليًّا وطال انتظاري أمامها، وأنا أشعر بالخوف والهلع، فالمرآة كانت تنقل لي تلك النافذة بالمنزل المهجور، مع ظل ضخم يحرك الستائر، وكأنه يراقبني.

انتفضت بشدة وأنا ألتفت للخلف، ولكن كل شيء ساكن إلا من حفيف الأشجار ونعيق بعض الغربان.

عدت للفراش محاولًا الحصول على قسط من النوم.. شعور ما يتملكني ورغبة عارمة تدفعني إلى النظر نحو تلك المرآة، حاولت مرارًا تجاهل الأمر وعدم النظر نحوها، ولكن هيهات فقد أصبح الأمر ملحًّا،

وما إن نظرت نحوها حتى رأيت تلك النافذة بالمنزل المهجور تظهر بوضوح، وكأنها بغرفتي، ولم تكن هناك أي ستائر.

دققت النظر جيدًا لأجد أن هناك كرة قدم ترتفع وتنخفض دون أن يحركها أحد، يا الله! ماذا يحدث! إنها كرتي أنا! ولكن كيف ذهبت إلى هناك!

حاولت النهوض من فراشي، ولكنني فشلت بذلك، وكأنني تسمرت بالفراش أو أن هناك من يقيدني فلا أستطيع الحراك.. ما هذا الظل الذي يتحرك! إنه نفس الظل الضخم والذي أراه من خلف الستائر، ولكنه يحمل شيئًا ما بين يديه!

هل يعقل ذلك حقًّا! إنه كلبي المفقود!

حاولت النهوض مجددًا دون جدوى، حاولت الصراخ ولكن صوتي لا يغادر حنجرتي!

ـ "أمي! أمي! أمي"!

استيقظت على صوت أمي، وهي تهزني بيديها، وقد بدا الذعر بصوتها وهي تقول: "ماذا بك؟ لماذا تصرخ"؟

أشرت نحو المرآة بأصابعي، وأنا أقول لأمي برعب وهلع: "لقد رأيت كلبي وكرتي المفقودة بالغرفة داخل البيت المهجور، من خلال المرآة عبر النافذة".

أمي وهي تحاول السيطرة على ملامحها وصوتها، وهي تقول لي: "وهل يمكن ذلك ونافذتك مغلقة"؟

ـ "نعم! كيف حدث ذلك؟ لقد أغلقت النافذة خوفًا من البوم والغربان".

أمي وهي تشيح بوجهها بعيدًا: "لا شك أنه كابوس".

قالت ذلك وهب تتوجه نحو الخزانة لتحضر غطاءً ضخمًا لتحيط به المرآة، وهي تقول لي محذرة: "لا تحدق بالمرايا، ولا تدقق بها، وحذار من تجاوز الجدران المغلقة".

استيقظت صباحًا على صوت شقشقة العصافير، وحفيف الأشجار، نهضت بشعور عارم بالخدر يجتاح جسدي، ذهبت للحمام فغسلت أسناني وعدت لارتداء ملابسي ولأصفف شعري بغرفتي.

أثناء وقوفي أمام المرآة تذكرت ما حدث بالأمس وذلك الكابوس المخيف الذي رأيته أثناء نومي ووو.... ولكن كيف هذا! ألم تغطِ أمي تلك المرآة قبيل مغادرتها؟

شعور بالخوف وقشعريرة اجتاحت جسدي بأكمله، وأنا أدقق بالمرآة، والتي تعكس لي تلك النافذة ذات الستائر الداكنة.

مر اليوم مملًا رتيبًا، وما زال كلبي مفقودًا وأمي لا تكاد تغادر غرفتها إلا للضرورة أو لتحذيري من الذهاب لذلك المنزل أو إطالة النظر بالمرآة.

وما إن جاء الليل وحل، الظلام حتى صعدت لغرفتي وقد نويت أن أقرأ كتابًا كنت قد لمحته بالخزانة.

قررت إغلاق النافذة بإحكام وللاحتياط قمت بوضع المرآة معكوسة، حتى لا تنقل لي أي شيء.. وما إن فعلت ذلك حتى وجدت بإطار المرآة الخلفي بعض أوراق الصحف وبعض الصور.

شعرت ببعض الحماس والكثير من الخوف، وأنا أتناول قصاصات الصحف وتلك الصور متوجهًا نحو الفراش لأطالعهم.

كانت الصحف تتحدث عن حريق ضخم شب بأحد المنازل ليموت جميع من فيه دون معرفة السبب أو الجاني، وكان الخبر مصحوبًا بصور الجثث والتي ضاعت ملامحها وتشوهت من أثر الحريق.

أما الصور فكانت لسيدة بنهاية العقد الثالث من عمرها بجوارها ابنها وزوجها.. ابتسم وهو يشاهد نفسه بالصورة مع والديه عندما كان طفلًا صغيرًا، فتلك الصورة منذ فترة طويلة وقبيل رحيل والده ومغادرته.

لم يشعر كيف غفا أو متى غالبه النعاس حتى شعر ببرودة شديدة تجتاح الغرفة لتجعله يشعر بالتجمد.. استيقظ وهو يتثاءب ليدرك أن تلك البرودة مصدرها النافذة المفتوحة على مصراعيها.

هم بإغلاقها وقبل أن يفعل انتابه شعور بالخوف والهلع، وهو ينظر بعفوية نحو المرآة، والتي كانت تعكس له وبوضوح تلك الغرفة بالمنزل المهجور، ومن خلال النافذة شاهد ما جعل شعر رأسه يقف وجسده ينتفض بعنف، فهناك بتلك الغرفة كانت أمه تقف وهي تبكي وتتوسل لشخص ما لا يظهر بوضوح، وإن كان ظله الضخم يبدو واضحًا جليًّا.

استدار إلى الخلف متوجهًا نحو نافذته، وهو ينادي على أمه ويصرخ بصوت عالٍ دون جدوى.

نهض من فوق الفراش بخوف وهلع وهو يلعن ذلك الكابوس الذي أرق نومه، ولكن ولدهشته، وجد النافذة مفتوحة والمرآة تعكس المنزل المهجور بنافذته المعلقة ذات الستائر الداكنة.

توجه بخوف نحو غرفة والدته، وهو يشعر بالرعب، وما إن اقترب من غرفتها حتى سمع صوتها وهي تنتحب.. كانت وكأنها تتحدث لأحدهم، وهي تقول برعب: "لقد عاد" ثم أردفت قائلة: "إنه يبحث عن انتقامه".

أنصت جيدًا ليسمع الطرف الثاني دون جدوى، ولكن أتاه صوت أمه وهي تقول: "ولكن كيف سنتخلص منه لا يمكنني ذلك".

كانت تصرخ وهي تقول: "لن أضحي بولدي.. لن أضحي به مهما حدث".

فتح غرفة والدته ودلف إلى الداخل مسرعًا وهو يقول بغضب: "مع من تتحدثين يا أمي...".

لدهشته الشديدة وجد أمه نائمة فوق فراشها وجسدها ينتفض ودموع غزيرة تسيل فوق وجنتيها.

توجه نحو أمه ليوقظها برفق، وهو يقول بتوسل: "أتوسل إليك يا أمي أخبريني ماذا يحدث هنا؟ ولماذا أتينا؟ ومن ذلك الذي يريد الانتقام منا"؟

الأم بصوت متهدج وهي تغالب دموعها: "أتينا لدفع الثمن.. ولو لم نأتِ لطاردنا حتى آخر الدنيا".

ـ "أي ثمن يا أمي؟ ومن ذلك الذي يطاردنا"؟

الأم: "منذ سنوات تسبب والدك بموت تلك الأسرة بالمنزل المقابل عندما اكتشف الرجل خيانة زوجته له مع والدك، وهنا قرر والدك قتلهم بإشعال النار منعًا للفضيحة، ولم يتم كشف الجريمة، ولكنني هجرته وقمت بتربيتك وحدي، حتى بدأت تحدث أشياء غريبة بمنزلنا واشتعال النيران بغرفتك وغرفتي، وبدأت تنتابني الكوابيس ورؤية ذلك الرجل يأمرني بالحضور ودفع الثمن أو يأخذ هو انتقامه".

ـ "ولكن كيف تخلى أبي عنا؟ ولماذا لم يسلم نفسه إلى الشرطة؟ يمكننا الإبلاغ عنه"؟

- "لقد علم والدك بالأمر، وسيحضر مساء اليوم مع شخص متخصص بعلم الأرواح لتحضير روح ذلك الرجل، وطلب العفو منه أو أخذ انتقامه منه وتركك بشأنك".

حل الظلام وأتي أبي معه ذلك الرجل، والذي طلب منا جميعًا الذهاب للمنزل المهجور وإحضار المرآة معنا.

تسللنا جميعًا من قبو المنزل، حتى صعدنا لتلك الغرفة المواجهة لغرفتي.. قام ذلك الرجل بإحضار طاولة وضعها بمنتصف الغرفة، وأشعل بعض الشموع وعددها (١٣)، وهو يقرأ بعض التعاويذ من ثم أمر والدي بالوقوف أمام المرآة مغمض العينين.

قام الرجل بالطرق على الطاولة طرقات متفرقة، حتى شعرنا جميعًا بالأبواب تصدر صريرًا والنافذة تفتح وتغلق بعنف.

أغلقت النافذة وحل الظلام إلا من ضوء الشموع، ليظهر ذلك الرجل الضخم وكأنه خرج من العدم.

بدأ الرجل يرتل تلك التعاويذ وبدأت تصيبنا القشعريرة أنا وأمي وأبي، حتى التصقنا ببعضنا.. ازدادت التعاويذ والرجل يشير إلى العدم نحونا، وكأنه لا يرانا موجهًا حديثه لنا وهو يقول: "هل تغفرون له؟ هل تسامحونه ليشعر بالسلام وتحصلون على السلام؟ يمكنكم الرحيل بسلام.. هل جربتم الغفران"؟

أشار نحو الرجل الضخم، والذي كان يبكي وينتحب، وهو يقول بصوت متهدج وبندم شديد: "سامحوني! أتوسل إليكم أريد الخلاص فقط، منذ ذلك اليوم لم أنم ولم أشعر بالراحة، أرواحكم تطاردني وتلعنني بكل لحظة".

أمي: "ماذا يقول هذا الرجل! إنه يريدنا أن نرحل من منزلنا"؟

بدأت الطاولة تهتز بعنف وخفتت نيران الشموع وارتفعت المرآة بمنتصف الغرفة وكأن هناك من يحملها بالهواء.

حاول الرجل قراءة بعض التعاويذ والرجل الضخم يلتصق بالجدار، وكأن هناك من يحجزه بالزاوية، حتى وقعت الشموع على الأرض لتشتعل النيران بالستائر وسط نحيب الرجل الضخم، وهو يقول: "بالموت خلاصي، أستحق الموت بهذه النيران"! قال ذلك وهو يلقي بنفسه وسط النيران، بينما ينظر نحوه أبي وأمي بِغِلٍّ وحقد.

رجل التعاويذ مخاطبًا الرجل الضخم: "مهلًا لا تفعل ذلك"! أتبع عبارته بقوله: "ليسوا سوى أرواح معذبة تشعر بالظلم.. أرواح هائمة تبحث عن الخلاص.. ولن يجدوه إلا بالغفران".

ارتفع صوته وهو يقول: "ارحلوا بسلام لتعموا بالسلام".

هنا صرخت بأمي وأبي قائلًا: "يكفي هذا! كفى! كفى"!

بهذه اللحظات تلاقت أيدينا وصعدنا نحو النافذة باتجاه السماء، لتسقط المرآة فوق الرجل وتتحطم فوق رأسه، حتى سالت دماؤه وغطت وجهه الشاحب شحوب الموتى، ومن ثم يهدأ كل شيء وكأنه لم يكن.

طيف عابر

ـ "كم سئمت تلك المهنة، والتي تضطرني للسهر حتى وقت متأخر من الليل"!

هكذا تحدثت سحر مع نفسها، ربما لتقطع الوقت أثناء مرورها بالمقابر بعد انتهاء ورديتها الليلية باعتبارها ممرضةً بإحدى المستشفيات.

كم تمنت أن يمر أي تاكسي لتستقله عائدة لمنزلها!

كان الصقيع يلف المكان بليلة شتوية ماطرة.. التحفت رداءها ورفعت ياقته لتغطي أذنيها، ربما يقيها لسعة البرد.

من بعيد لمحت فتاه ترتدي (جاكيت) أبيض يشبه رداء الممرضات، ومن فوقه رداء أسود ثقيل، وبإحدى يديها ترفع مظلتها لتقيها المطر، بينما بيدها الأخرى تحمل قلادة فضية مميزة على هيئة الرقم (١٣).

أسعدها ذلك جدًّا وبث الطمأنينة إلى قلبها.

اقتربت منها حتى لامست كتفها، قائلة: "ما أسوأ طقس اليوم"!

أفسحت لها الفتاة مساحة لتدخل تحت المظلة.. نظرت لوجهها، وهالها ذلك الشحوب البادي عليها.. توجهت لها سحر بالحديث قائلة: "هل تعملين معنا بأحد أقسام المستشفى"؟

الفتاة بنظرة باهتة أومأت برأسها علامة الإيجاب.

فردت سحر: "هذه أول مرة أراك بها، بأي الأقسام تعملين"؟

رفعت الفتاة يدها لتبرز عظام كفها.. فقالت سحر: "هل تقصدين قسم العظام"؟

لم تلتفت لها الفتاة وظلت تكمل مسيرها.

من بعيد لاح لهم تاكسي قادم نحوهم.. هنا تنهدت سحر تنهيدة عميقة قائلة بارتياح: "وأخيرًا"!

ما إن توقف التاكسي أمامها حتى فتحت الباب، وهي تدعو الفتاة للدخول.

نظر إليها السائق متعجبًا، وهو يقول بدهشة: "مع من تتحدثين سيدتي؟! فأنتِ وحدك..."!

عربة القطار

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحًا عندما نظرت لساعتها للمرة العاشرة على التوالي خلال دقائق معدودة؛ لتتأكد من أنها لم ولن تتأخر عن موعدها المحدد مسبقًا.

للمرة العاشرة أيضًا تأكدت من هندامها وملابسها بنظرة أخيرة بتلك المرآة، والتي وضعتها خصيصًا بالردهة المؤدية إلى الباب الخارجي، وهي تغادر شقتها مهرولة نحو المصعد.

ضغطت للنزول إلى الأسفل.

أخرجت راندا مفاتيح سيارتها وضغطت زر التشغيل عن بعد لتوفر بعض الوقت.

ضغطت مرة تلو الأخرى دون جدوى ودون أن تسمع صوت المحرك.. توجهت إلى السيارة مباشرة ودلفت بداخلها، وأدارت المفتاح، ولكن أبى المحرك أن يصدر صوته المحبب إلى أذنيها.

نظرت إلى ساعتها مرة أخرى، وهي تشعر بالإحباط خوفًا من تأخرها عن تلك الندوة، والتي ستحاضر بها أستاذةً لمادة علم النفس وأكاديمية بعلم الاجتماع، ومؤلفة ذائعة الصيت بمجال التنمية البشرية.

كانت محاضرتها اليوم بالندوة المقامة بأحد الفنادق الفاخرة عن التواصل الإنساني وبناء العلاقات الناجحة بمحيط الأسرة والعمل.. حاولت لعدة مرات إدارة المحرك دون جدوى مما كاد يصيبها بالغيظ والإحباط.

نزلت من السيارة وهي تشعر بالحيرة والتوتر، قبل أن يأتيها صوت القطار ليذكرها بقربها من محطة القطار.. لم تستغرق أكثر من ثوانٍ معدودة في التفكير قبل أن تقنع نفسها أن القطار هو الوسيلة الأسرع لبلوغ تلك البلدة بطريق الإسكندرية والوصول بالوقت المناسب لبدء الفعالية المشاركة بها.

وما هي إلا دقائق حتى وجدت نفسها بمحطة القطار والتذكرة بين يديها بانتظار القطار، والذي سيأتي خلال دقائق كما أخبرها موظف التذاكر.

تنهدت بارتياح عندما سمعت صافرة القطار لتنبئ عن حضوره بموعده المحدد على غير عادة مواعيد القطار، والتي تتأخر بالساعات في بعض الأحيان.

صعدت راندا لعربة القطار وهي تمعن النظر بها، فهي لم تعتد على استخدام القطار في تنقلاتها منذ شراء سيارتها.. كانت العربة شبه فارغة بل هي فارغة بالفعل بهذا التوقيت المبكر من الصباح.

توجهت للمقعد المفرد والذي يحمل رقم (١٣)، والقريب من باب القطار، حتى تكون بمفردها وتجنبًا للمتطفلين ومن يفضلون قتل الملل بالحديث مع رفاق السفر.

أخرجت كتابها الصادر حديثًا والذي ألفته ونشرته عن التواصل والتفاعل بين الفرد وأسرته ومحيطه، أرادت مراجعة القسم الخاص عن التفكك الأسري وانهيار بعض العلاقات الأزلية حتى علاقة الإنسان بوالديه.. وما إن بدأت بالقراءة حتى شعرت باصطدام قدمها اليسرى أثناء تحريكها بشيء لم تدرك للوهلة الأولى ماهيته.

ترددت قليلًا قبل أن تحسم الأمر وتنحني لتلقي نظرة خاطفة أسفل المقعد، ولدهشتها رأت حقيبة يد نسائية بنية اللون مصنوعة من الجلد.. نظرت من حولها مرة أخرى لتتأكد من خلو العربة من الركاب، فربما تكون لإحدى السيدات وستعود لاحقًا للحصول عليها، وبعد أن تيقنت أنها الوحيدة بعربة القطار مدت يدها لتتناولها، وما إن أصبحت بين يديها حتى أصابتها الرهبة، وقشعريرة سرت بجسدها لم تدرك كنهها.

ترددت قليلًا في فتح الحقيبة ورؤية ما بداخلها، وبين تسليمها بمكتب الأمن بالمحطة.. بعد تفكير قررت فتحها لتعلم إن كان بها ما يستحق عناء الاهتمام من عدمه.

فتحت السحاب الخارجي للحقيبة، فوجدت كيسًا به بعض الأدوية، ومبلغًا بسيطًا من المال، وسلسلة ذهبية بها صورة لسيدة تبدو وكأنها بالعقد السادس من عمرها.. وبداخل أحد جيوب الحقيبة الجانبية وجدت رسالة مغلقة عليها اسم وعنوان.

هنا قررت راندا أن تسلمها بمكتب الأمن بالمحطة للبحث عن صاحبتها وإيصالها لها.

مر الوقت بطيئًا حتى توقف القطار بمحطة وصولها، وما إن هبطت من القطار حتى توجهت لمكتب ناظر المحطة تسأله عن كيفية التعامل مع الأمر، والذي أخبرها بأنهم ليسوا معنيين بذلك، فإما تكمل إلى الإسكندرية وتسلمها هناك أو تعود إلى القاهرة وتسلمها بمحطة الأمن.

لم تود الجدال كثيرًا في ذلك خوفًا من تأخرها عن ندوتها.. استقلت تاكسي وطلبت منه إيصالها بسرعة لذلك الفندق، والذي تقام به الندوة.

وما إن وصلت حتى تم استقبالها واصطحابها مباشرة لتعتلي المنصة لتلقي محاضرتها في وجود جمع غفير من المدعوين والأكاديميين ومصوري البرامج والصحف.

أثناء حديثها وفي غمرة حماسها وانفعالها، لمحت سيدة تنزوي وحيدة بركن منزوٍ بآخر القاعة.. للحظات عاودتها تلك القشعريرة وهي تحاول التذكر أينَ ومتى شاهدت تلك المرأة.

كانت نظرات المرأة مسلطة عليها وكأنها غير معنية بسواها.. كلما نظرت راندا نحو المرأة المجهولة شعرت بهاجس غريب ينتابها ويصيبها بالقلق والتوتر.. نفضت عنها ذلك الخاطر وأشاحت ببصرها بعيدًا، متحاشية النظر نحو تلك المرأة، حتى لا يتشتت ذهنها، ولكن ورغمًا عنها لم تستطع منع عينيها وذهنها من التعلق بتلك السيدة، والتي كانت تبادلها التحديق وكأنها لا ترى سواها.

انتهت الندوة بعد أن تلقت الدكتورة راندا الكثير من الأسئلة من خلال الحضور، أجابت عنها بسرعة واقتضاب، فما زال ذهنها مشغولًا بتلك المرأة الغريبة وما زالت عينيها مسلطتان عليها.

وما إن هبطت عن المنصة، وهي بطريقها للخروج حتى فوجئت باختفاء تلك السيدة أو ربما رحيلها.

غادرت بعد أن طلبت من منظمي الندوة تسجيلًا للندوة يتم إرساله على حاسوبها.. استقلت التاكسي وأخبرته بالتوجه إلى محطة القطار، وأثناء قطع السيارة للطريق تذكرت الحقيبة، فوضعت يدها بداخلها وتناولت السلسلة، وبالتركيز بالصورة المطبوعة عليها أدركت أنها تشبه تلك السيدة المجهولة بالقاعة إن لم تكن هي.

تناولت الرسالة، وقرأت العنوان المكتوب عليها بصوت مرتفع، وهي تسأل السائق إن كان يعرفه أم لا.. أجابها السائق بأن العنوان خلف محطة القطار بالشارع القديم.

هنا قررت راندا أن تقوم بإيصال الحقيبة بنفسها عوضًا عن الدخول بأي مهاترات جانبية مع أمن المحطة، أو ربما تشعر بالفضول لمعرفة سر تلك الحقيبة والسيدة بالصورة.

طلبت من السائق إيصالها وانتظارها لدقائق.. توقفت السيارة أمام بيت عتيق له حديقة صغيرة، بنهايتها باب حديدي يؤدي لمبنى من طابقين.

وهي بطريقها لعبور الممر الذي يقودها مباشرة إلى الباب الحديدي، عاودتها تلك القشعريرة مع رعشة بجسدها وبرودة احتلت كامل أوصالها، مع شعور بالجفاف لم تدرِ سببه.

ضغطت على الجرس الخارجي عدة مرات، ولا مجيب، وما إن همت بالطرق على الباب حتى وجدته مواربًا.. دفعت الباب بيدها برفق ولين، ودلفت بالداخل وهي تنادي دون مجيب.

بآخر الرواق رأت ضوءًا خافتًا يشبه ضوء الشموع، ينبعث من إحدى الغرف الجانبية، وصوت سعال متقطع يأتي من داخلها.

أخذت تردد بصوت مرتفع: "هل يوجد أحد هنا؟ هل هناك من يسمعني"؟

أصغت قليلًا عساها تسمع صوتًا يجيب عليها دون جدوى، فقط صدى صوتها هو ما كان يرتد لها ليلقي الخوف والوجل بقلبها.

حاولت أن تهدئ من روعها قليلًا واستدارت تنوي العودة من حيث أتت، لولا تلك الآهات المكتومة والتي تنامت لمسامعها.

أصغت قليلًا فتنامى إلى أذنيها صوت السعال، وقد ازدادت وتيرته، حتى أصبح وكأن هناك من يعاني أو يختنق.

تقدمت مسرعة صوب الغرفة، وما إن وصلت حتى دفعت الباب بخوف وقلق، وهي تتوجس خيفة، وما إن أصبحت بالداخل حتى وجدت سيدة مستلقية على الفراش وهي تسعل بشدة، بل تكاد تختنق وقد وضعت رأسها ووجهها بين كفيها.

كانت الغرفة شبه مظلمة إلا من تلك الشمعة الوحيدة بذلك الشمعدان النحاسي، وهي المصدر الوحيد للضوء.

شعرت بالرطوبة تحيط بها من كل جانب، ورائحة العطن تتسلل إلى أنفها لتزكمها بقوة.

كانت الغرفة باردة للغاية، كما لو أنها ثلاجة لحفظ الموتى.. كانت الستائر السوداء السميكة على النوافذ تحجب أي مصدر للشمس أو الضوء.

نظرت راندا للمرأة والتي ما زالت تسعل وتلهث وتتنفس بصعوبة بالغة، وكأنها تحتضر وتعالج سكرات الموت.. اقتربت منها وهي تبحث عن كوب الماء، وما إن وجدته حتى قدمته لها، وهي تقول لها: "رشفة من الماء ستساعدك".

نظرت لها المرأة بنظرات زائغة وشاردة دون أي حديث.. نظرات فارغة من الحياة كما لو أنها لا تراها أو تشعر بوجودها.

ما أثار دهشة راندا وخوفها أكثر أنها أيقنت أن تلك السيدة هي نفسها المتواجدة بالسلسلة، والأغرب من ذلك والأدهى أنها نفس المرأة التي كانت منزوية وتتابعها بالقاعة.

حاولت راندا قطع الصمت والحديث معها دون جدوى، أشارت إلى الحقيبة بتردد وخوف، وهي تقول: "هل تعود لك"؟ وعندما لم تجد إجابة من المرأة على سؤالها استطردت تقول بتوتر، وهي تحاول ابتلاع ريقها بصعوبة: "لقد وجدتها داخل عربة القطار وبها سلسلة ورسالة عليها هذا العنوان".

أدركت راندا أنه لا جدوى من الحديث معها أكثر من ذلك.. هنا لم تجد أمامها سوى المغادرة بعد أن وضعت الحقيبة بالقرب منها على حافة الفراش قبل أن تغادر متوجهة إلى الخارج.

وبينما خرجت من الغرفة وقطعت الرواق، إذ شعرت ببعض الراحة والهدوء النفسي.

غادرت من الباب الحديدي والذي يؤدي إلى الحديقة، وبينما وصلت إلى البوابة الخارجية، إذ وجدت من يدلف من البوابة الخارجية للمنزل، وهو ينظر إليها بدهشة وتعجب واستغراب، كانت نظراته مزيجًا من الشك والريبة.

تلعثمت بالحديث، وهي تسأل بتوتر عن التاكسي الذي ينتظرها أمام البوابة.

نظر الرجل إليها بتساؤل، وقد كان شابًّا ببداية العقد الرابع من عمره، وهو يقول: "عن أي سيارة تتحدثين؟ ولماذا أنتِ هنا؟ وكيف دخلتِ من الباب"؟

شعرت راندا بالخجل، وهي تنظر حولها بحثًا عن السيارة، ربما لتستشهد بالسائق وهي تقول: "لقد جئت لتوصيل أمانة لصاحبة المنزل، وقد أوصلتها بالداخل قالت هذا وهي تشير بإصبعها للخلف حيث الغرفة.

أثارت كلماتها فضول الشاب وريبته، فقطب ما بين حاجبيه متسائلًا بشك: "هل قلتِ صاحبة المنزل؟ وما تلك الأمانة؟ ومن أنتِ»؟

ازدادت نبضات قلبها خفقانًا، وهي تقول: "عفوًا فأنا لم أعرفك بنفسي"! استطردت تقول: "أنا الدكتورة راندا راشد أستاذة علم النفس بجامعة القاهرة، ولي مؤلفات بالتنمية البشرية".

مد الشاب يده مصافحًا وهو يقول: "المهندس شريف الحسيني صاحب شركة مقاولات".

استطرد يقول بتعجب: "ولكنك لم تخبريني ماذا قصدتي بتلك الأمانة، وبأنك جئتِ بها لصاحبة المنزل"؟

- "إنها حقيبة وجدتها بعربة القطار القادم من القاهرة إلى الإسكندرية، وبداخلها رسالة تحمل هذا العنوان".
- "أي حقيبة؟ وأين هي»؟
- "لقد أوصلتها للسيدة بالداخل"، أردفت قائلة: "ولكني أعتقد أنها مريضة وتحتاج للعرض على الطبيب، كذلك الغرفة تحتاج إلى التنظيف والتهوية والسماح للشمس بدخولها...".

شريف مقاطعًا وهو لا يكاد يصدق ما يسمعه: "عن أي سيدة وأي غرفة تتحدثين سيدتي"!

راندا بحرج: "ربما ليس لي التدخل بشؤونكم، ولكن حالة السيدة بالداخل صعبة للغاية".

شريف وهو يتنهد كمن فقد صبره: "من فضلك يا دكتورة، هلا نظرتي إلى هذا المنزل جيدًا، إنه خالٍ من البشر منذ شهور، ووالدتي تقيم عند أختي منذ رحيلنا عن البيت، ولا يوجد أحد بالداخل".

راندا وهي تحدق به بذهول: "هل تعتقد أنني أختلق ذلك، وأنني اقتحمت منزلك دون سبب"؟

شريف بشك: "لا تفسير لدي غير ذلك، وإلّا فأين هو السائق؟ وأين الحقيبة والسيدة"؟

راندا بانفعال وغضب: "لا أسمح لك بذلك، وإن كنت لا تصدقني فالحقيبة وضعتها بجوار المرأة على الفراش، ويمكنك التأكد من ذلك بنفسك".

تقدم شريف نحو الباب وهو يقول لها بشك تفضلي لنرى.

سار شريف أمامها، وهي من خلفه، تكاد تلعن حظها السيئ، والذي جعلها تصطدم بتلك الحقيبة بأسفل مقعدها بعربة القطار وتحضرها إلى هذا العنوان.

وصل شريف إلى الغرفة، وهو يشير إليها قائلًا بسخرية وتهكم: "هل قلتِ إنك كنتِ بداخل هذه الغرفة، والتقيتِ داخلها امرأة وسلمتيها حقيبة"؟

راندا بانفعال وغضب: "نعم.. نعم لقد أخبرتك أن..."! وقبل أن تكمل عبارتها نظرت بعينيها إلى حيث يشير شريف لترى بأم عينيها ما جعلها تصاب بالذهول، فقد كانت الغرفة والتي غادرتها منذ قليل مغلقة من الخارج، وعليها قفل صغير يعلوه التراب بكثافة.

فركت راندا عينيها وكأنها تحلم غير مصدقة لما تراه: "كيف لهذا أن يحدث"! تحدثت راندا بصوت منخفض خجول، وهي تنقل بصرها ما بين شريف والغرفة، وذلك القفل، والذي يعلوه الغبار والتراب الكثيف، وهي تهمهم قائلة: "أقسم أنني كنت بالداخل وهناك سيدة مريضة تسعل بشدة، بل وتكاد تختنق أنا لا أختلق هذا صدقني هذا ما حدث بالفعل".

شريف وهو يخرج سلسلة مفاتيح من داخل جيبه، ليفتح القفل وهو يرد بشك وريبة: "ربما سنرى"!

فتح القفل ودلف إلى الداخل وسط عاصفة من التراب والغبار، كان الظلام يلف الغرفة بأكملها.

كادت راندا تنهار وهي ترى تلك الغرفة المظلمة.. استدار شريف وأنار الكهرباء وهو يضغط على أنفه بشدة متحاشيًا هجمة الغبار الشرسة.

نظرت راندا من حولها وهي تقول: "نعم ها هو الشمعدان.. لقد رأيته وكانت به شمعة مشتعلة، وهذه الستائر السوداء كذلك..."!

كانت تتحدث بانفعال وعجز ينبآن عن قلة حيلتها، فلم تنتبه لشريف والذي كان بكل حواسه وببصره يحدق بتلك الحقيبة الجلدية ذات اللون البني الموضوعة على طرف الفراش.

كانت تلك الحقيبة بالنسبة لراندا بمثابة طوق النجاة لها، والبرهان الوحيد على صدقها، فقالت وهي تتنهد: "ألم أخبرك بذلك! أنت لم تصدقني! ها هي الحقيبة وأنا وضعتها بيدي هنا ويمكنك التأكد من محتوياتها".

كان شريف صامتًا وهو يتأمل الحقيبة، والتي كانت القطعة الوحيدة بتلك الغرفة التي لا يعلوها أي ذرة غبار.

استطردت راندا تقول بدهشة وحيرة: "ولكن أين تلك المرأة؟ وأين ذهبت؟ لقد كانت هنا! استدركت قائلة وكأنها تفكر بصوت مرتفع: "ربما تكون غادرت وأغلقت الباب من الخارج".

شريف –وما زال مشدوهًا وغير مستوعب لما يحدث–: "هل تصدقين أنتِ ذلك"؟ أردف قائلًا: "بحسب كلامك فنحن التقينا عقب مغادرتك للغرفة مباشرة، ووسط هذا التراب، والذي تمتلئ به الغرفة، كان يجب أن نرى آثار الخطوات".

هزت راندا رأسها مؤيدة لقوله، وما زلت تفكر: كيف؟ ولِمَ حدث ذلك؟ ولولا تلك الحقيبة لإصابتها لوثة عقلية بلا شك.

تناول شريف الحقيبة بيد مرتعشة، وهو يغادر الغرفة بصمت مشيرًا لراندا أن تتبعه

وما إن أصبحا بالحديقة، حتى أحضر مقعدين من الخيزران، ومائدة يعلوها بعض الغبار، حاول تنظيفها قدر الإمكان قبل أن يدعوها للجلوس، وينظر إليها بتوسل وكأنه يرجوها قائلًا بصوت خفيض: "من فضلك أريد أن أفهم فقط! هلا أعدتي على مسامعي كل شيء منذ البداية وحتى الآن، ودون إغفال أي تفاصيل ولو بسيطة".

روت له راندا ما حدث لها منذ خروجها من بيتها مرورًا بعربة القطار وعثورها على الحقيبة، حتى توجهها لإلقاء محاضرتها ورؤية المرأة المجهولة والتي تشبه الصورة على السلسلة، وحضورها إلى المنزل ومشاهدة نفس المرأة، وهي تعاني على فراشها وصولًا لحضوره، أنهت حديثها بقولها: "والباقي أنت تعرفه فنحن عايشناه سويًّا".

تصبب العرق على وجه شريف، وهو يقول لها: "هلا وصفتِ لي تلك المرأة"!

بدأت راندا حديثها بالقول: "إنها بالعقد السادس من عمرها ذات بشرة بيضاء ترتدي..."، وقبل أن تستطرد حديثها عن وصف ملامح المرأة أشارت إلى الحقيبة بين يديه، وهي تقول: "صورتها بالسلسلة.. أعتقد أنه من الأفضل أن تراها بنفسك".

بيد مرتجفة فتح شريف الحقيبة، وتناول السلسلة ليقربها من عينيه وهو ينظر لراندا بتعجب قائلًا: "إنها أمي.. ولكن كيف! أكاد أجن ولا أجد تفسيرًا لكل ذلك، فأمي لم تستقل القطار يومًا، والسائق هو من يقوم بتنقلاتها".

راندا مقاطعة لتساؤلاته: "معذرة! ولكن أعتقد أنه يحق لي أن أفهم، خاصة وأنك منذ قليل كنت تتهمني وكأنني لصة أو...".

قاطعها قائلًا بحزن وأسى: "أعتذر عن ذلك وسأخبرك".

تنهد قبل أن يعود بمقعده للخلف، وهو يشير إلى الصورة على السلسلة قائلًا: "إنها لأمي، وهي من قامت بتربيتنا أنا وأختي بعد اختفاء والدنا المفاجئ، وغيابه غير المبرر للجميع، فهو كان يحب أمي ويحبنا لأبعد الحدود".

تنهد وهو يقول: "تزوجت أنا وتزوجت أختي، وحدث بيننا خلاف بوجهات النظر على الميراث بسبب رغبة أختي بالاحتفاظ بهذا المنزل، مبررة ذلك باحتمالية عودة والدي يومًا ما، بينما أردت أنا هدمه وإقامة برج سكني فوق الأرض من خلال شركة المقاولات التي أديرها، كما أن والدتي رفضت ذلك وبإصرار غريب إلا بعد موتها".

راندا وكأنها تحثه على مواصلة الحديث: "وماذا بعد"؟

شريف: "سافرت منذ أيام مع زوجتي وأولادي إلى الغردقة، بينما رفضت أمي وقالت إنها ستتوجه للإقامة عند أختي".

- "وهل هي عند أختك الآن"؟
- "بالأمس رأيت رؤية غريبة، كانت والدتي ووالدي هنا بالبيت يجلسان سويًّا، وهما يبتسمان لي ويخبرانني أنهما بانتظاري للاحتفال بعيد زواجهما الأربعين".. أكمل قائلًا: "حاولت الاتصال بأختي مرارًا للاطمئنان على والدتي، ولكن دون جدوى، وعندما فشلت في الاتصال والاطمئنان على أمي حضرت إلى هنا".

وما كاد ينتهي من عبارته حتى كانت هناك فتاة بالعقد الثالث من عمرها تدخل باندفاع، وهي تسأل: "أين أمي؟ أين هي"؟

شريف وهو يوجه كلماته للفتاة: "ماذا تقصدين بذلك؟ أليست عندك"؟

الفتاة وقد ازداد قلقها وتوترها: "لم تمكث عندي سوى يوم واحد، وباليوم التالي أخبرت الخادمة أن السائق ينتظرها بالأسفل، وأنها ستعود للإقامة لديك لأنك لم تذهب إلى الغردقة".

شريف: "هل تعنين أنك لا تعلمين عنها شيئًا منذ أسبوع"؟

وقفت راندا على استحياء وهي تستمع إلى حديثهما، لتنظر إليهما بحيرة متسائلة وكأنها توبخهما: "أنتما الاثنان لا تعلمان شيئًا عن والدتكما لمدة أسبوع! هل يعقل ذلك حقًّا"!

نظرت الفتاة إلى راندا قبل إن توجه نظراتها إلى أخيها وهي تسأل: "ومن تكون السيدة"؟

شريف وهو يأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقوم بعملية التعارف بينهما، فقدم الدكتورة راندا للفتاة بينما عرف عن الفتاة بأنها أخته سلمى.

مرت لحظات التعارف سريعًا، وعاد السؤال يطرح نفسه من جديد: "ماذا يحدث؟ وأين ذهبت السيدة الكبيرة"؟

روى شريف لسلمى ما روته له راندا، وما حدث معهما وتلك الرؤية الغريبة التي رآها أثناء نومه، والتي أحضرته من الغردقة، وقبل أن يتم حديثه عن الرؤية أكملت أخته نفس الرؤية، وكأنهما تشاركا نفس الرؤية بنفس الوقت مما أصاب الجميع بالذهول.

سلمى بخوف وقلق: "يجب أن نبلغ الشرطة لتبحث عنها، فربما تعرضت أمي للاختطاف".

شريف وهو يفكر بصوت مرتفع: "هل يعقل أن تكون غادرت من عندك وفقدت ذاكرتها"!

راندا وهي تسعل، وكأنها تعلن عن وجودها قائلة بتردد: "ربما تكون الرسالة ذات أهمية، أو تجدان بداخلها ما يوضح هذا الأمر".

شريف وكأنه قد نسي أمر تلك الرسالة: "هذا حقيقي! رباه أين هي»؟

سلمى: "عن أي رسالة تتحدثان"؟

شريف: هذه الرسالة ستأخذنا لأمي أو..."! شرد شريف قليلًا شاخصًا ببصره نحو المجهول مردِّدًا عبارته، وكأنه يحدث نفسه أو يفكر بصوت مرتفع: "هذه الرسالة إما أن تقودنا لأمي أو أنها ستكون مجرد بداية نحو المجهول".

أفاق من شروده وهو يتوجه لراندا قائلًا: "أين هي"؟

راندا وهي تشير لجيب الحقيبة الجانبي: "إنها هنا".

تناول شريف الرسالة بسرعة، وفضها ليقرأ ما بداخلها بصوت مرتفع، كانت الرسالة مقتضبة وكأنها كتبت على عجل، وجاء فيها: "ما دمتما تقرآن هذه الرسالة فقد وصلتما إلى نقطة النهاية.. بالغرفة المظلمة وخلف الستائر السوداء داخل الخزانة قوما بواجبكما النهائي نحوي وأبيكما.. ولا تنسيا أنتما إخوة تسري بشراييكما نفس الدماء، تتشاركان نفس المصير، أنا أسامحكما بتقصيركما معي، ولكن لن أغفر لكما تقصيركما بحق أنفسكم كإخوة.

أحبكما وكفى".

وكانت الرسالة مذيلة بتوقيع الأم.

راندا بتساؤل: "هل المقصود بالغرفة المظلمة تلك الغرفة التي..."!

سلمى: "أتذكر أن والداتي وضعت بعض الستائر السوداء بالخزانة منذ اختفاء والدي، وكانت تمنعني من الدخول للغرفة أو العبث بمحتوياتها خاصة الخزانة.. وكلما دخلَتْ إلى الغرفة أغلقت عليها من الداخل، حتى إنها كانت تغيب بالساعات، وعندما أسألها ماذا تفعلين بالداخل كانت تتعلل بأنها نائمة أو تتهرب من الإجابة".

هنا نهض شريف وهو يقول لهما بجدية: "اتبعاني".

توجه الجميع إلى الغرفة، ومنها إلى الخزانة مباشرة، وبينما أزاحوا الستائر السوداء إذ برز لهم باب صغير وسط الجدار تمامًا، له مقبض حديدي، ما إن أداره شريف حتى فتح الباب ليجد أمامه درجًا خشبيًّا يفضي إلى سرداب أرضي.

نزل شريف بحذر تتبعه سلمى ومن خلفها راندا.. أشعل شريف الضوء ليتفقد الجميع المكان.. كان بهوًا واسعًا مجهزًا للمعيشة، به ثلاجة وتلفاز ومكتبة ونعشين أحدهما مغلق والآخر مفتوح وفارغ.

وقبل أن يكملوا التجول بأبصارهم، كانت سلمى شبه منهارة تبكي وتنتحب بجوار جسد والدتها المسجى على الفراش.. كان يبدو أن الوفاة حديثة لم يمر عليها سوى يوم واحد أو ربما أقل من يوم.

كانت تحمل بين أصابعها ورقة صغيرة، مكتوبًا فيها بيد مرتعشة وبخط مهتز.

- "عندما تقرآن كلماتي هذه، فهذا معناه أنني ميتة.. وقد آن الأوان لأكشف لكما ما أخفيناه عنكما وظل سرًّا حفظته بقلبي وروحي كل هذه السنوات.

أريدكما أن تعلما أن والدكما لم يهرب ولم يختفِ، ولكن وحتى يحميكما وحفاظًا على أرواحكما كان يجب أن يتوارى عن الأنظار.. ستجدان بدرج المكتب الخاص بوالدكما ملفًّا كتب عليه (سريٌّ جدًّا) وهو خلاصة علم وفكر والدكما وطوق النجاة لكما وللوطن بل وللأمة كلها من الهيمنة الصهيونية.

من أحضر الأمانة وحافظ عليها وقادكما إلى هنا سيكون أمينًا على أمل الأجيال القادمة.

ربما لا يجب أن تعلما أكثر من ذلك، حتى لا تتعرض حياتكما وحياة من تحبان للخطر.

قوما بواجبكما الأخير نحونا.

بالنهاية وددت كثيرًا أن أقبلكما وأن أشكر تلك الفتاة صاحبة الروح الشفافة والتي أحضرت لكما الحقيبة من عربة القطار".

بعد ثلاث سنوات وبإحدى الليالي القمرية وبعربة القطار شبه الفارغة اصطدمت قدم الدكتورة راندا بجسم صلب أسفل مقعدها الفردي بجوار باب القطار، وقبل أن تنحني لترى ما هو وجدت من يوقظها من نومها، وهو يعتذر ليسألها عن التذكرة، فركت عينيها لتطرد ذلك النعاس، والذي جعلها تشعر بالخدر يسري بكامل جسدها.

فتحت حقيبتها لتخرج التذكرة أثناء ذلك اصطدمت يدها بملف كبير من الورق كُتب عليه باللون الأحمر (سريٌّ جدًّا) وقبل أن تفيق من صدمتها وذهولها شعرت بضربة قوية على رأسها ليعم الظلام داخل عربة القطار، وكان آخر ما رأته ذلك الرجل ذا الملامح الأجنبية، وهو يتقدم نحوها يحمل بين يديه ميدالية فضية على هيئة نجمة سداسية.. لتفقد وعيها وسط هدير القطار الصاخب وملامح المرأة المجهولة تلوح لها من بعيد، وكأنها تراقبها أو ربما لتحميها.

نظرت إليها راندا بتوسل لتنهض المرأة وتتوجه نحوها مباشرة؛ حيث ما زالت تجلس بمقعدها داخل عربة القطار.

لعنة الدم (القطار)

وصل أسامة إلى محطة القطار متأخرًا قليلًا.. وكاد القطار يتحرك بدونه، ولكن لحسن حظه حدث ما لم يكن يتوقعه أحد: قطيع من الكلاب يقف على القضبان ويمنع تقدم القطار.

وما إن وصل أسامة وصعد إلى القطار، حتى تحرك أكبرهم حجمًا والذي كان أقرب للذئب منه إلى الكلب، وكأنها كانت الإشارة التي تحرك بعدها باقي القطيع، نظر أسامة من النافذة إلى الكلاب، والذين كان عددهم اثني عشر كلبًا وقائدهم (١٣)، وبرغم تذمر ركاب القطار من تلك العطلة التي تسببوا بها، كم ود هو حقًّا لو يستطيع شكرهم! فلولا وجودهم لتحرك القطار مغادرًا بدونه.

لوهلة التقت عيناه بعيني قائد القطيع، أو ربما خيل إليه ذلك.. شعر أن ذلك الكلب يرمقه بنظرة ثاقبة تحمل الكثير من الشراسة والغضب، وما إن تلاقت نظراتهم حتى انطلق مثل السهم مغادرًا المكان، ومن خلفه باقي القطيع وسط دهشة الجميع.

شعر أسامة برهبة شديدة، فقد ظلت تلك النظرة عالقة بذهنه ولم تفارقه، كما أنه يتساءل بينه وبين نفسه: أين؟ ومتى رأى تلك العينين من قبل؟

وها هو يتحرك القطار مغادرًا.

تنهد أسامة تنهيدة طويلة قبل أن يعود إلى الخلف بمقعده مسترخيًا وممنيًا نفسه بوقت طيب يقضيه مع إخوته وأصدقائه ببلدته، نعم هو يحتاج لذلك بشدة، بعد كل ما مر به من أحداث تبدو غريبة على نمط حياته، وهو الذي ولد ونشأ وعاش ثلثي عمره بالصعيد، قبل نزوحه واستقراره بالقاهرة للعمل بشركة المقاولات، التي يمتلكها أحد كبار رجال الأعمال براتب مجزي لإعجاب صاحب الشركة بعلمة وأخلاقه، حتى إنه وافق على ارتباطه بابنته الوحيدة.

كل شيء كان يبدو طبيعيًّا وروتينيًّا حتى ذلك اليوم الذي قصده فيه صديقه سمير للذهاب معه إلى ذلك العراف، الذي يتحدث عنه الجميع بأنه يقرأ الماضي والحاضر ويتنبأ بالمستقبل.

عبثًا حاول أسامة إقناع سمير، بأن هؤلاء ليسوا سوى دجالين ومشعوذين يستغلون جهل الناس للاستيلاء على أموالهم دون جدوى.. على مضض وافق أسامة بالذهاب معه، خاصة أن (سمير) هو صديقه المقرب، كما أن والد سمير كان أيضًا صديق والده المقرب، وكلاهما اختفيا بظروف غامضة دون العثور على جثثهما أو اكتشاف منفذ الجريمة.

وكالعادة انتشرت الخرافات وتناقلت الألسن الكثير من القصص والروايات عن اختفائهما المفاجئ.

يكاد يكون سمير هو صديقه الأوحد منذ حضوره إلى القاهرة، يتقاسمان الغربة سويًّا.

وبينما هو بطريقه إلى سمير، إذ وجد رجلًا كهلًا ممن يطلقون عليهم لقب دراويش؛ حيث جلبابه الواسع المطرز بالدلايات، وبعض الخرز الملون مع عمامة خضراء كبيرة، وعصا مقوسة بآخرها جزء معدني يشبه الصولجان.

ببادئ الأمر وجد الرجل يرمقه بنظرات حادة وبها بعض الترصد والتنمر، اقترب منه محاولًا وضع بعض النقود بيده، ولكن حدث شيء لم يخطر على باله أبدًا، فقد رد الرجل يده بقسوة وقوة، وهو ينظر بعينيه نظرة مباشرة، وهو يردد بصوت عميق بدا وكأنه يأتي من بئر عميق وسحيق: "عندما تعود الأمانة يعود الأمان والجميع سيدفع الثمن". ردد الدرويش هذه العبارة أكثر من مرة وهو يغادر مبتعدًا.. أثار تصرفه دهشة أسامة، والذي رجح بينه وبين نفسه أنه بلا شك أحد المجاذيب.

وصل أسامة إلى المكان المتفق عليه مع سمير، الذي قابلة بترحاب شديد، وهو يقول مبتسمًا: "أعلم أنك أتيت مرغمًا، ولكني أعدك أننا لن نتأخر هناك".

وبالفعل بعد عدة دقائق وصل الاثنان إلى بناية قديمة عتيقة الطراز، أشار سمير إليها وهو يقول: "ها قد وصلنا".

وأمام باب خشبي وقف الاثنان، وقبل أن تمتد أيديهما للباب، كان قد فتح وحده، دلفا إلى ردهة خافتة الإضاءة؛ حيث يقف رجل قصير دميم الوجه، أشار إليهما باتجاه إحدى الغرف دون أي حديث، بالفعل توجها إلى الغرفة، والتي ما إن دلفا إليها حتى توجسا خيفة، وقد سرت الرعشة بأوصالهما، حيث كان الظلام يلف الغرفة بينما الدخان المنبعث

من أمام الرجل الجالس والذي يتمتم بعبارات غير مفهومة يبعث على الرجفة والقلق.

أشار الرجل إليهما بيده دون أن يرفع رأسه، وهو يقول موجهًا كلامه بلهجة هادئة لسمير: "ستشرق الشمس وينبعث الضوء ويزداد النجم لمعانًا، ومع صرخة الولادة ستكون صرخة الرحيل وسيعم الظلام".

سمير: "ماذا تقصد؟ هل سأصبح مشهورًا؟ هل سيلمع نجمي؟ هل سيتهافت الناس لمشاهدة أفلامي؟ هل سيشار إليّ بالبنان وأصبح فنانًا لامعًا ولي معجبون"؟

الرجل بنبرة صارمة وحادة: "أخرج ولا تعد مرة أخرى"!

قام سمير وهو بحيرة من أمره يتبعه أسامة للمغادرة، لولا ذلك الصوت من ذلك الرجل موجهًا حديثه بغضب وحده، وهو يقول لأسامة: "عندما تعود الأمانة يعود الأمان والجميع سيدفع الثمن".

هنا تسمرت قدما أسامة بالأرض، وهو يحدق بالرجل، والذي لم يكن سوى ذلك الدرويش الذي التقاه وهو بطريقه إلى هنا.

تسمرت قدماه بالأرض، وهو يشعر بالذهول من هول الصدمة والمفاجأة، وكلمات الرجل التي كانت مباغتة لأسامة، حاول أن يتساءل أو يستوضح، لولا صرامة الرجل، وهو يقول: "غادر! وحذار أن تنسى أو تعود قبل أن تعيد الأمانة".

تململ أسامة وهو يجلس على مقعده بالقطار، فقد أعادت له كلمات الدرويش عندما تذكرها خوفًا وقشعريرة سرت بروحه قبل أن تتملك من جسده، نفض أسامة ذلك الخاطر عن ذهنه، فقد كان يشعر بالإرهاق الشديد.. عاد بظهره للوراء ووضع فوطة على وجهة واستسلم لنوم عميق.

ولكن مهلًا ما هذا الذي يراه ويشعر به! ظلام حالك ولهاث متقطع وزمجرة تشق سكون الليل، كل هذا كان كفيلًا بأن يفتح أسامة عينيه ببطء، لينظر حوله بشك وريبة وهو يتوجس خيفة، ولكنه لم يرَ أي شيء: السواد هو كل ما يحيط به، وفجأة لمح أزواجًا كثيرة من العيون الحمراء تنتشر حوله بشكل عشوائي، لم يحتج للكثير من الوقت ليعرف أنها كلاب سوداء بغاية الضخامة، لا يظهر منها سوى احمرار عينيها، وصوت لهاثها المتعاقب وألسنتها التي تتدلى منها، وهي تحدق به بحدة وغضب، بينما تحيط به من كل جانب.

حاول أن يصرخ ويستغيث بلا جدوى، حاول أن ينهض من مقعده أو يتحرك ولكن بلا جدوى، فقط يشعر بالخدر يسري بكامل جسده فلا يستطيع الحركة، حاول حتى تحريك يديه، ولم يستطع، كان وكأنه مكبل اليدين والقدمين.. شيء ما يجثم على صدره.

كانت الكلاب تحيط به من كل جانب على شكل دائرة، وكلما مر الوقت ضاقت الدائرة، حاول أن يحرك لسانه بقراءة بعض ما يحفظ من آيات القرآن الكريم، ولكنه لا يقوى حتى على ذلك بسبب جفاف ريقه، فجأة بدأت الدائرة تتسع من حوله ليقترب منه زعيمهم، لم تكن تظهر منه سوى عينيه واللتين تحولتا إلى بقعتين من الدم الداكن شديد الاحمرار.

كان صوت لهاثه وأنفاسه كفيلين بتوقف قلبه من الخوف والهلع.. اقترب الكلب الضخم، والذي كان يشبه الذئب من أسامة، أخرج لسانه الذي لامس رقبة أسامة والذي كان عاجزًا عن إبداء أي نوع من المقاومة.

شعر بأسنانه تقترب من رقبته، تكاد تنهشها وتمزقها، وشعر بلعابه ذي الرائحة النتنة، يملأ أنفه أغمض عينيه مستسلمًا لمصيره منتظرًا لحظة النهاية، والتي بدت له أنها اقتربت كثيرًا.

شعر بأظافره تقترب من رقبته لتمزق من أسفل أذنيه، وحتى صدره حرك رأسه يمينًا ويسارًا وهو يحاول جاهدًا الصراخ وفتح عينيه.

لم يدرِ إلا وذلك الرجل الجالس قبالته يحاول إيقاظه وتهدئته، وهو يقول: "اهدأ يا بني، يبدو أنك رأيت كابوسًا مزعجًا، فقد كنت تحرك رأسك بعنف دون أي صوت، وكان العرق يتصبب من جبينك وكأنك بسباق".

حتى هذه اللحظة كان أسامة فاقدًا للنطق غير مدرك ما حدث أو يحدث أو ما سيحدث، فقط تلك الرائحة النتنة ما زالت تزكم أنفه، وقشعريرة ما زالت تسري بكامل جسده.

شكر الرجل ونهض متوجهًا إلى الحمام ليغسل وجهه.

كانت تلك الرائحة النتنة ما زالت تسيطر عليه، وكأنها تأتي من داخله وتملأ أنفاسه، وذلك الألم برقبته لا يحتمل، غسل وجهه ورأسه بالماء البارد.

وبينما كان يجفف وجهه إذ شعر بالألم الشديد عندما مرت الفوطة على رقبته، وعندما اقترب من المرآة ليرى مصدر الألم، كاد يفقد الوعي، فقد كانت تلك الخطوط الحمراء الناتجة عن مخالب حادة تمتد من خلف أذنه وحتى صدره تبدو ظاهرة بوضوح شديد.

عاد أسامة إلى مقعده والرعب يملأ كل خلية بجسده ليتملك كل حواسه، حاول أن يظل مستيقظًا، وألا يستسلم للنعاس، فما حدث له أثناء غفوته جعله يشعر بخوف ورعب حقيقي، فهل كان ما حدث وهمًا

وكابوسًا كما قال الرجل الجالس أمامه وهو لم يغادر موقعه! وإن كان كذلك فمن أين أتت تلك الرائحة والعلامات الناتجة من أنياب ومخالب!

دون أن يدري ودون جدوى، وكأنه تحت تأثير مخدر قوي، وجد نفسه مغمض العينين، ويدخل بإغفاءة جديدة؛ ليذهب بدوامة تلتقفه كمن دخل خلاط كبير وكل شيء حوله يدور فلا يعرف موقع رأسه من قدميه.

وما إن توقف الدوران وقف على قدميه يحاول الثبات بصعوبة بالغة، فقد وصل لحد كبير من الإرهاق والإنهاك.

تساءل بينه وبين نفسه بخوف: أين أنا! وما هذا المكان!

لا شيء محدد كل شيء مبهم وغير واضح المعالم.

وفجأة يظهر ذلك الكلب الضخم الذي كان يقود قطيع الكلاب بمحطة القطار، بنفس عينيه اللتين تلمعان بلون الدم الأحمر الداكن.. بهدوء سار الكلب أمامه وكأنه يطلب منه أن يتبعه بصمت وانصياع ودون مقاومة.

تبع أسامة الكلب الذي دخل إلى مكان شبه مهجور، وكأنه طاحونة قديمة أو ما شابه، يعم الظلام أرجاء المكان، ولولا تلك العيون الحمراء التي تلمع بالظلام ما تبين معالم المكان حالك الظلمة.

وبينما يحاول استكشاف المكان، إذ شعر برجفة وجسده يترنح بقوة، فالمكان يهتز بشدة وصوت الرعد مع لمعان البرق وهطول الأمطار جعل الموقف أكثر رعبًا، لم يفِق مما يحدث، حتى تناهى إلى مسامعه أصوات خافتة مع وقع أقدام تقترب منه.

حاول الاختباء، ولكن أين يختبئ! وممن يختبئ!

توارى خلف جدار مهدم، وهو ينصت دون أن يرى، دخل ثلاثة رجال يحملون ثلاثة مصابيح قوية الإضاءة، أحالت ظلام الطاحونة إلى نهار، لم يكن يرى وجوههم بوضوح، ولكن كانت أصواتهم تصل إلى مسامعه، ولكن ما هذا هل ذلك الصوت الذي تناهى إليه هو صوت والده حقًّا.

خرج من مخبئه عندما تأكد أنه فعلًا صوت والده، أخذ يصرخ بأعلى صوت محاولًا لفت انتباه والده ومن معه دون جدوى، فقد كان واضحًا أنه هو فقط من يراهم، وهم لا يرونه أو يشعرون به أو بوجوده بينهم، أخذ يراقبهم وهم يحاولون الحفر بمنتصف المكان بمنتهى النشاط والجدية، وأحدهم يقول بحماس: "بعد الآن لن نصبح من الفقراء، سوف نصبح من الأثرياء".. رد عليه الرجل الآخر: "وهل أنت متأكد أن هذا هو المكان المنشود".

رد عليه بثقة: "نعم! هذا هو المكان الذي حدده العراف، بعد أن قرأ تعويذته من خلال الزئبق الأحمر، ولولا ذلك ما اشترينا هذه الطاحونة الملعونة بكل هذا المال".

سمع والده يقول: "هيا! لا يجب أن نهدر الوقت".

مرت ثلاث ساعات كاملة قبل أن يظهر سرداب عليه باب بعمق الحفرة، تهللت على إثر رؤيته أساريرهم وهم يطلقون الصيحات بحماس، اختلف الثلاثة عمن سينزل أولًا، واتفقوا على نزول والده أولًا، والذي نزل بالفعل، وما هي إلا دقائق حتى خرج بوجه شاحب يشبه وجوه الموتى، دون أن ينطق ببنت شفة، وكأنه قد رأى أشباح الكون بأكمله، وقبل أن يتساءل الآخران عما أصابه، أشار بأصابعه إلى السرداب وقد جحظت عيناه من الرعب، هنا قرر والد سمير ومرافقهم الثالث النزول سويًّا لاستكشاف المقبرة ورؤية ما بداخلها، وبمجرد نزولهم

الذي لم يستغرق سوى ثوانٍ، كان كلاهما يحاول الخروج باستماته، وكأن شياطين الإنس والجن تطاردهم، فوجوههم كانت أقرب إلى وجوه الموتى من شدة شحوبها مع عدم قدرتهم على النطق.

لحظات لم تكن كافية لخروجهم من حالة الرعب والذهول، حتى تناهى إلى مسامعهم صوت أقدام تأتي من الخارج مما أصابهم بالرعب والفزع.

كان أسامة يشاهد ويرى ما يحدث دون أن يجرؤ على التدخل أو حتى الكلام من شدة خوفه وجهله بما رأوه بالأسفل.. وقبل أن يفيق من ذهوله دخل عليهم رجل مسن، ولكنه قوي البنية، يشبه بهاليل القرى ممن يجلسون قرب المساجد ويحضرون الموالد بملابسهم المزركشة والدلايات الكثيرة على صدورهم والعمامة الضخمة على رأسه، وما إن دخل ورآهم حتى قال لهم بصوت غاضب: "ماذا تفعلون هنا؟ سيقتلكم الطمع! سيقتلكم طمعكم"! وأخذ يردد نفس العبارة بغضب شديد: "سيقتلكم الطمع! سيقتلكم الطمع"! وبحركة واحدة ومفاجئة وكأنها متفق عليها ودون أي حديث أو سابق إنذار انقض الثلاثة على البهلول ليحملونه بين أيديهم ويحاولون إلقاءه بالسرداب بعمق الحفرة، وهو يصرخ: "ستلاحقكم لعنة الطمع والدم، وستلاحق أولادكم من بعدكم حتى يتم القصاص"!

حاول أسامة التدخل لإنقاذه من بين أيديهم دون جدوى، فهم لا يرونه ولا يشعرون به، بل وكما يبدو هم لا يشعرون بما يفعلون فكأنما تحولوا إلى (زومبي) وما إن ألقوا به بالحفرة حتى ردموا عليه بالتراب، وهم يتبادلون النظرات فيما بينهم وكأنهم غير مدركين ما حدث للتو.

لحظات من الرعب والفزع مرت بأسامة غير مصدق ما رآه أمامه، كان الوضع بالنسبة إليه يمثل أسوأ كوابيسه، حاول نبش التراب بيديه لإنقاذ البهلول وإخراجه دون جدوى، وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته، وأثناء ذلك وجد خرزة زرقاء ضخمة، يبدو وأنها وقعت من البهلول أثناء إلقائه بالسرداب، عندما كان يحاول الحفر لإنقاذ البهلول، كان أبوه ووالد سمير ومن يرافقهم يحاولون تسوية الأرض بأقدامهم.

وبينما هم يفعلون ذلك، إذ تهاوت الأرض من تحت أقدامهم لتبتلعهم نفس الحفرة بثوانٍ معدودة، ومن ثم تتساوى الأرض وكأن شيئًا لم يحدث.

بينما يراقب أسامة ما يحدث بخوف ووجل تنشق الأرض فجأة، ليخرج البهلول وكأنه قد انبعث من تحت التراب منتفضًا وهو يردد نفس العبارة.

تسمر أسامة بذهول وهو يرى الدرويش يخرج من الحفرة، بينما ذلك الكلب قائد القطيع والذي كان قد نسي أمره في غمرة هذه الأحداث المتلاحقة يبرز فجأة من الركن المظلم، وبحركة دائرية أخذ الكلب يدور بقوة وبسرعة حول البهلول، والذي شاركه نفس الحركة وأصبح الاثنان يدوران بقوة وسرعة، ليلتحما ببعضهما البعض ويصبحا بجسد الكلب والذي نظر إلى أسامة نظرة نارية بعينيه الدمويتين.

الآن فقط أدرك أسامة وتذكر أين رآهما من قبل، وما إن تذكر أنهما نفس عيون ذلك الدرويش العراف، والذي ذهب إليه بصحبة صديقه سمير حتى كاد يفقد وعيه خوفًا وفزعًا، بينما كان الكلب قد أصبح ضخمًا للغاية، فاغرًا فاه والزبد يسيل من بين شفتيه، وقد برزت أنيابه الحادة لتزداد عينيه احمرارًا ودموية وهو ينقض على أسامة بشراسة ناشبًا مخالبه بصدره ووجهه ويلقيه أرضًا، وأنيابه تحاول اختراق رقبته بقوة وعنف.

ـ "أتركني! دعني وشأني! أرجوك لا شأن لي بما حدث". ظل أسامة يردد هذه الكلمات كمن يهذي، والرجل بالكرسي المقابل له يحاول تهدئته دون جدوى.

وما إن أفاق ووجد نفسه بالقطار حتى انتبه لحركة جسده وتوتره، بخوف ووجل قال موجهًا حديثه للرجل، وهو ما زال يلهث: "ماذا حدث؟ ماذا يحدث لي؟ أين أنا؟ هل ما زلنا بالقطار"؟

كانت هذه كلمات أسامة والرجل يخبره أنه لاحظ عليه وهو نائم أنه ينتفض والعرق يتصبب من على وجهه ورقبته، وهو يتحرك بجسده أثناء غفوته بانفعال شديد وبالنهاية ملأت صرخاته المكان حتى استيقظ.

اعتدل أسامة بكرسيه، وأخذ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، مردداً ما يحفظ من آيات قرآنية حتى استعاد أنفاسه وهدأ قليلًا.

نظر من النافذة يتابع القطار وهو يأكل الطريق ويطويه، أسند رأسه بجوار النافذة محاولًا أن يشغل نفسه بالقراءة بتلك الصحيفة التي يطالعها الرجل، وذهنه مشغول بما يحدث مع أسامة.

تململ الرجل بمقعده محاولًا إخفاء دهشته واستغرابه مما يحدث لأسامة أمامه دون أي تفسير.

أراد أن يشاركه الحديث ربما يستريح له، ويكون هذا بداية الخيط ليتحدث معه أسامة ويشرح له ما يحدث، وجه حديثه لأسامة وهو يقول بنبرة حزينة غلب عليها الأسى: "يا له من حادث مروع للغاية"!

أسامة: "عن أي حادث تتحدث"؟

ـ "ذلك الفنان الشاب الذي ألقى بنفسه من الطابق الحادي عشر، بعد أن أصبح نجمًا شهيرًا يشار إليه بالبنان.. لا أدري فيمَ يفكر هؤلاء الناس! فهم لديهم كل ما يحلم به الآخرون؛ لديهم المال والشهرة والأضواء مسلطة عليهم دومًا".

أثارت كلماته دهشة أسامة، وقد لفت انتباهه حديث الرجل، والذي أيد كلامه بصورة الفنان المنتحر، والذي ما إن رآه أسامة حتى أصيب بالهلع والفزع، فلم يكن ذلك الرجل سوى صديقه المقرب سمير، ألجمته المفاجأة وتساقطت دموعه رغمًا عنه، فها هو صديق طفولته ورفيق دربه يموت، وليته مات موتًا طبيعيًّا، ولكنه مات منتحرًا.

تساقطت دموعه وغلب عليه الحزن، حاول مداراة مشاعره عن الرجل الجالس أمامه، والذي بادره بالسؤال: "هل تعرفه؟ أم أنك أحد معجبيه"؟

وقبل أن يتحدث بأي كلمة، تذكر حديث العراف عندما ذهب إليه سمير بصحبته، ما زالت كلماته تدوي برأسه وعقله عن سطوع نجمه وإشراق شمسه وعن صرخة الولادة، وكيف يأتي الرحيل ومن بعد ذلك يحل الظلام، وها هو قد حل الظلام على حياة صديقه، ورحل بعد أن نال الشهرة وبزغ نجمه كما قال الدرويش.

لا يدري ماذا حدث أو أين ذهب الرجل! حتى إنه لا يشعر بحركة القطار أو اهتزازه، فقط ما يشعر به هو الظلام يحيط به من كل جانب، قبل أن يتحول المكان فجأة إلى حديقة ممتلئة بالنباتات والزهور.

على مد البصر، رأى أمه تأتي من بعيد بملامحها الهادئة وابتسامتها الصافية، ورقتها التي تشبه الملائكة، كانت تتقدم نحوه بابتسامة ساحرة، وهي تقدم له وردة بيضاء، وتقول له بصوت رقيق: "هل عرفتني يا أسامة"؟

- "نعم عرفتك يا أمي، كم اشتقت إليك كثيرًا! ولكن كيف هذا؟ أين نحن؟ وماذا تفعلين هنا"؟
- "لا يهم يا أسامة، لا يهم، ولكن هل تعدني بشيء وتحققه لي".

أسامة بحنو: "وهل عصيت لك أمرًا من قبل".

ـ لا تركب القطار يا أسامة، مهما حدث لا تركب هذا القطار.

ـ "لماذا لا أركب القطار"؟

ـ "عدني بأنك لن تركب القطار مهما حدث يا أسامة".

ـ "حسن يا أمي، كنت أود حقًّا أن ألبي طلبك هذا، ولكنني داخل القطار فعلًا".

الأم وهي تبتعد وصوتها يخفت تدريجيًّا: "عندما كنت صغيرًا صنعت لك حجابًا كما تفعل النسوة بالقرى، به عين زرقاء ليحفظك، والآن أنت رجل ولا حاجة لك به فلتعدها إلى صاحبها، عدني بذلك.. وعدني ألا تركب القطار عدني بأنك لن تركب القطار مهما حدث.. عدني يا أسامة.. عدني أرجووووووك".

أسامة بصوت خائف ومرتجف: "لماذا يا أمي؟ لماذا"؟

ـ "لا تركب القطار، سيحترق القطار ابنه سيحرق القطار لينتقم، وليحصل على خرزة والده الفرعونية، لقد دمر وقتل الجميع لينتقم منهم، ولكنك لست منهم، أنت بريء من دمه أنت بريء من دمه، فلا تركب القطار يا ولدي.. هو يلاحق الخرزة التي تعود لوالده والتي وجدتُّها بالطاحونة أثناء بحثي عن والدك، والتي جعلتها حجابًا لك، فلتعدها له.. فلتعدها له". أخذت تبتعد وما زال صوتها يتردد من بعيد "لا تركب القطار.. لا تركب القطار".

وفجأة وكما بدأ الأمر انتهى.. "أستاذ.. يا أستاذ! يا أستاذ"! أفاق أسامة على صوت النادل بكافتيريا المحطة، وهو يطلب منه الحساب، ويخبره أن القطار الذي سيستقله متوقف برصيف المحطة وسيتحرك بعد قليل.

أسامة: "منذ متى أنا هنا"؟

النادل: "منذ أن أتيت قبل ساعتين لانتظار القطار، وأنت نائم وتهذي أثناء نومك، بل وتصرخ وكأن الجن يطاردك".

أسامة وهو يدفع الحساب: "أشكرك"!

النادل: "هيا لتلحق بالقطار".

أسامة وهو يمزق التذكرة: "لن أسافر اليوم، لن أسافر لم يحن الوقت لسفري".

عندما استيقظ أسامة صباح اليوم التالي كان صوت المذياع مرتفعًا للغاية، وهناك من يهاجم الحكومة ويطالب بإقالة وزير النقل والمواصلات بسبب تعدد حوادث القطارات الأخيرة، وصوت أحد شهود العيان وهو يتحدث عن احتراق العربة السادسة بالقطار، وامتداد الحريق لباقي العربات، وموت الكثيرين بهذا الحريق الضخم، وضع أسامة يده بجيب قميصه، لتصطدم يده بجسم صلب صغير، عندما أخرجه لم يكن سوى تلك الخرزة الزرقاء، والتي عندما نظر إليها بعمق شعر وكأن وجه أمه يبدو مبتسمًا، وبحركة عفوية ابتسم وهو يقول: "شكرًا يا أمي! شكرًا".

للحظات خيل إليه أن صوت أمه يتردد بأذنه "جميعهم دفعوا الثمن، بوقت ما لا بد وأن يدفع أحدهم الثمن، وما عليك إلا أن تعيد الأمانة لتنعم بالأمان، والآن أصبحت تعلم أين وكيف تعيد الأمانة"!

أسامة وكأنه يجيب ذلك الهاتف الذي راوده: "نعم يا أمي! أعلم أين وكيف سأعيدها! ستعود الأمانة يا أمي، أعدك بذلك ستعود من حيث أتت وحيث يرقد صاحبها".

الجدار

هل عاش أحدكم يومًا ذلك الإحساس بفقدان الهوية! فلا ماضٍ أو حاضر أو مستقبل!

هو ليس شعورًا مؤقتًا أو وصفَ حال لمرحلة زمنية.. فجأة وبدون سابق إنذار وجد نفسه بهذا المكان وكأنه قد وجد من العدم.

هو لا يتذكر شيئًا على الإطلاق.. فلا شيء يربطه بماضيه أو بحاضره، إنما يشبه الصفحة البيضاء.. ليس لديه رؤية للمستقبل.. لا شيء محدد بعقله وتفكيره.

هو حتى لا يملك اسمًا.. شعور مرعب أن تكون هكذا.

فكيف لإنسان أن يظل بلا شيء! حتى بدون اسم يجعله معرفًا وليس نكره..

غالبًا ما نفتقد ما لا نملكه، ويزداد تعلقنا به ولا نكف عن التفكير به.. فالحرية ليست رفاهية يمكننا الاستغناء عنها، أو من الكماليات التي يمكننا التعايش بدونها.

الحرية كانت، وستظل من أساسيات الحياة، بل ربما تكون هي الحياة ذاتها.

حاول جاهدًا أن يتبين معالم المكان، فربما يذكره بشيء أو يقوده لخيط يصل به لبر الأمان.. فإن كان لا يتذكر ماضيه أو يملك مستقبله، فالحاضر الذي يعيشه هو فقط مصدر وجوده.

حاول جاهدًا رؤية ما يحيط به بصعوبة بالغة، فالظلام دامس والمكان ضيق نسبيًّا.. لا يشعر بالحرية في حركته.. هنا فقط أدرك الحقيقة المؤلمة!

فهو مقيد، نعم! هو مقيد بحبل لا يستطيع التخلص منه أو الفكاك بعيدًا عنه.

أصبح الشعور بالخوف هو ما يسيطر عليه حرفيًّا.

تُرى لماذا هو مقيد؟ ومن يكون ذلك الذي قيده؟ وما الغرض من ذلك؟

حاول أن يفتح عينيه ببطء ليتبين معالم المكان، ولكنه فشل بذلك فشلًا ذريعًا.. لا يدري هل المشكلة بعينيه، أم بالظلام الذي يحيط به من كل حدب وصوب.

حاول دفع جسده بقوة فوجد، نفسه يغوص ويتكور أكثر فأكثر، ليرتفع وينخفض ويصطدم بجدار رخو يحيط به من كل جانب واتجاه.

استخدم قدميه بكل قوة، فربما يتحسس شيئًا ما ينبئه عن مكان احتجازه.. شعر بلزوجة غريبة أصابته برعشة وقشعريرة مخيفة.

شعر بالإرهاق والتعب قد نالا منه بعد هذا الجهد المبذول، فاستسلم للنوم مبكرًا على غير عادته.

لا يدري كم من الوقت قد مر عليه نائمًا! فهو بمكان احتجازه لا يشعر بالوقت ولا حساب للزمن.. قرر أن يستخدم حاسة السمع المرهفة، والتي يتمتع بها، فربما تقوده لشيء ما يوضح له حقيقة وضعه المرعب والمخيف.

بعد جهد ومحاولات مضنية استطاع أن يميز بعض الأصوات، ومن بين هذه الأصوات هناك صوت يتكرر كثيرًا وبوضوح تام.. صوت يشعر وكأنه قد سمعه من قبل، ربما بالماضي القريب أو السحيق.

بينما هناك أصوات أخرى تتغير وتتبدل تباعًا، وعلى فترات متباعدة ولا يستطيع تمييزها أبدًا.

تبًّا لهذا الجدار! فهذا الجدار هو ما يحرمه من الحرية، وهو ما يجعله مقيدًا وهو ما يجعله أسيرًا بمكانه المجهول.

آه لو يستطيع قطع هذا الحبل ومغادرة هذا الجدار ورؤية النور! أثناء تفكيره المستمر ومحاولاته المضنية لفهم ما يدور حوله، تعجب لأمر مهم لم يلتفت له من قبل ولم يعره اهتمامًا: فطعامه يأتيه بانتظام ودون أن يطلبه وكذلك شرابه.

هو أيضًا لا يعرف أو يرى من يقدمه له.. ولكنه ولدهشته يأكل ويشرب بانتظام تام.

تُرَى هل تستمر الحياة وتستقيم فقط بالطعام والشراب؟ هل يمكننا أن نقايض الحرية ببعض أساسيات الحياة الأخرى؟ لو امتنع عن تناول طعامه وشرابه ومارس حقه بالإضراب عن الطعام هل سيعجل هذا بخلاصه وحصوله على حريته؟ ربما نعم وربما لا.

أخيرًا استسلم لوضعه القائم.. لم يعد يشغل تفكيره بوضعه الراهن أو لماذا وكيف أو حتى متى الخلاص.

ربما قد تعود على حياته الجديدة أو ربما تعود على الظلام والهدوء.. حتى ذلك الحبل الذي يقيده لم يعد يمثل له مشكلة كما كان بالسابق، حتى إنه أصبح لا يحاول التخلص منه.

هنا طرأ على ذهنه سؤال مباغت: هل الاعتياد على شيء يجعله نمطًا طبيعيًّا وروتينيًّا للحياة؟ هل يصبح الإنسان أكثر انقيادًا مع كثرة الضغوط؟

تبادر ذلك إلى ذهنه عندما أصبح يشعر أنه اعتاد وتأقلم على وضعه، وما كان يضايقه من قبل أصبح شيئًا روتينيًّا.. حتى إن ذلك الجدار قد أصبح متكئًا له ولم يعد يراه كالسابق جدارًا عازلًا له عن الحرية.

فقط ما أصبح يزعجه حقًّا تلك الأصوات القادمة من خلف الجدار، فقد أصبحت أقوى وأكثر وضوحًا وضجيجًا عن ذي قبل.. وذلك الصوت المميز أصبح مألوفًا له جدًّا ومريحًا بنفس الوقت.

ذات يوم شعر بحركة كبيرة من حوله وارتجاج اهتزت له كل أركانه، فكأنما هناك زلزال قد اجتاح كل عالمه.

فجأة وجد نفسه يعلو ويهبط وجسده ورأسه تصطدمان بالجدار بقوة وعنف.

شعر بالحبل يلتف عليه من كل جانب ليطوق رقبته بقوة.. إنه يشعر بالاختناق الشديد.. أنفاسه تكاد تختفي.. (١٣) ثانية دون هواء كانت كافية ليشعر بالخدر يجتاح كامل جسده، وهو بطريقه لفقدان الوعي الجزئي.

حاول الصراخ بلا جدوى.. ولكن مهلًا ما هذا الصوت الذي يسمعه.. إنه صوت أنين وبكاء.

عندما أنصت وجده نفس الصوت المألوف له يبكي ويئن بحزن وألم.. مد يديه وقدميه محاولًا التخلص من ذلك الحبل الذي التف بقسوة وإحكام حول رقبته، ولكن دون جدوى.

هنا أدرك أن نهايته أصبحت محتومة وأنه بطريقه إلى النهاية.

استسلم لمصيره بيأس، فأغلق عينيه على ظلام دامس يحاصره من كل الاتجاهات.. شعر بالخدر يجتاح كل خلاياه وهو يفقد وعيه تدريجيًّا.

يقولون إن الإنسان بلحظاته الأخيرة يستعيد حياته السابقة كلها كشريط سينمائي (فلاش باك)، ولكن هذا لم يحدث معه أبدًا، فهو لا يملك ماضيًّا سحيقًا أو حتى ذكريات عابرة.

قبل غيابه عن الوعي الكامل ولأول مرة منذ أن أصبح محتجزًا خلف هذا الجدار يشعر وكأن هناك نافذة صغيرة قد تم فتحها بالجدار.

شعاع من ضوء قد اخترق الجدار، ليحيل ظلمته إلى نهار، حتى إنه أغمض عينيه بخوف وهلع.. وما إن اعتادت عيناه على هذا الضوء، حتى رأى –ومن تلك النافذة– بعض الأيادي تمتد، وهي تحاول جاهدة تخليصه من ذلك الحبل باستماته لإخراجه من خلف ذلك الجدار.

بدأ يستعيد أنفاسه تدريجيًّا، وكأنه يعود من سبات عميق.

فجأة وجد نفسه محمولًا بين الأيدي التي أخرجته من الجدار، بعد أن خلصته من الحبل بقطعه.

ما هذا المكان الذي أخرجوه إليه؟

لماذا يشعر بالقلق والانقباض؟

نظر إلى الوجوه بدهشة بالغة، وما أثار دهشته وحيرته أنهم كانوا يبتسمون وهم يوجهون كلماتهم إلى تلك السيدة المسجاة على طرف الفراش، وهي تئن وتتألم بنفس الصوت الذي كان يسمعه عندما كان أسيرًا خلف الجدار.

سمع أحدهم يقول بجدية بالغة: "لقد نجا من الموت المحقق بمعجزة إلهية فالحبل الصري كاد أن يخنقه بعد أن التف حول رقبته لـ (١٣) ثانية، ليمنع الهواء من الوصول لرئتيه، فذلك الحبل كاد أن يخنقه".

أردف الرجل قائلًا للسيدة المستلقية على الفراش شاحبة الوجه متقطعة الأنفاس: "وقوعك من أعلى الدرج سيدتي عجل بخروجه إلى الدنيا قبل موعده، ولكنه والحمد لله بصحة جيدة، ويتمتع ببنية قوية ووزن جيد".

هنا أدرك المأساة والتي كان يجهلها من قبل.

لقد أدرك أنه خرج من خلف ذلك الجدار؛ حيث كان ينعم بالأمان والراحة، بل وحيث كان ينعم بالحرية الحقيقية والمطلقة.

خرج من خلف الجدار لينضم لقافلة المختارين من البشر والذين وقع عليهم الاختيار الإلهي لخوض الاختبار البشري.

ومع تلك التهاني وتلك الوجوه الباسمة ومع تلك الحقيقة المؤلمة والمرعبة بنفس الوقت، والتي أدركها للتو لم يجد شيئًا يعبر به عن خوفه ورعبه من ذلك الاختبار سوى البكاء والصراخ بكل ما أوتي من قوة.

رقم 13

تبًّا لهن! كيف أستطيع إقناعهن أنني لست سوى عاشق تم سلبه عقله بنظرات أعينهن.

هل حقًّا هن عاجزات عن إدراك أن أنانية الحب مطلقة، وأن الامتلاك أبسط قواعد العشق والشغف.

هل تكمن مشكلتي بأنني أحببت هؤلاء الحمقاوات الحسناوات ذوات الأعين الساحرة؟!

نظر بعينيها بحب وحنق، وهو يقول لها: "ألم أخبرك مثلهن بكل مرة نلتقي بها أن عينيك هاتين لا يجب أن ينظرا لغيري ولا يجب أن يراهما سواي! ألم أعدك أنني سأجعلك مثلهن فلا تشاهد عيناك غيري! ها أنا ذا أوفي بوعدي لك"!

قال ذلك وهو يتناول تلك الحافظة، والتي تحتوي على محلول طبي وتحمل رقم (١٣) ليضع بداخلها عينيها، وهو يتمم قائلًا، بدأت رائحة جسدك تنبعث، وبدأ جسدك يتعفن مما يصيبني بالغثيان، وهذا يوترني أيتها الحمقاء، سأتخلص منه فهو لا يلزمني بشيء، كل ما يعنيني منك بتلك الحافظة وهم عينيك الساحرتين

الكاتب في سطور

- أيمن موسى أحمد.
- شاعر وقاص وروائي.
- من مواليد محافظة سوهاج بجمهورية مصر العربية.
- عضو فريق كوكب العزلة الأدبي.

صدرت له العديد من الأعمال الأدبية:

- (بعد الغياب) ديوان شعر حر، صادر عن دار الحسناء للنشر والتوزيع.
- (رؤى حالمة) مجموعة قصصية لمجموعة أدباء، صادرة عن دار الزيات للنشر والتوزيع.
- (كوكب العزلة) مجموعة قصصية لمجموعة أدباء، صادرة عن دار جولدن بوك للنشر والتوزيع.
- (حلم عابر) رواية، صادرة عن كاريزما للنشر والتوزيع.
- (أرق المساءات) ديوان شعر حر صادر عن دار كاريزما للنشر والتوزيع.

وله أعمال تحت الطبع منها:

- (لعنة العين الثالثة) نوفيلا.
- (حتمًا سنلتقي) نوفيلا.

فهرس

الإهداء	٣
المشرحة	٥
النبوءة	٣١
روح أسيرة	٤٣
فـــوبيـــــا	٥٩
دعوة للموت	٦٧
أنت التالي	٧٧
أحدهم	٧٩
الأشباح لا تموت	٨٩
طيف عابر	٩٩
عربة القطار	١٠١
لعنة الدم (القطار)	١١٩
الجدار	١٣٣
رقم ١٣	١٣٩
الكاتب في سطور	١٤١